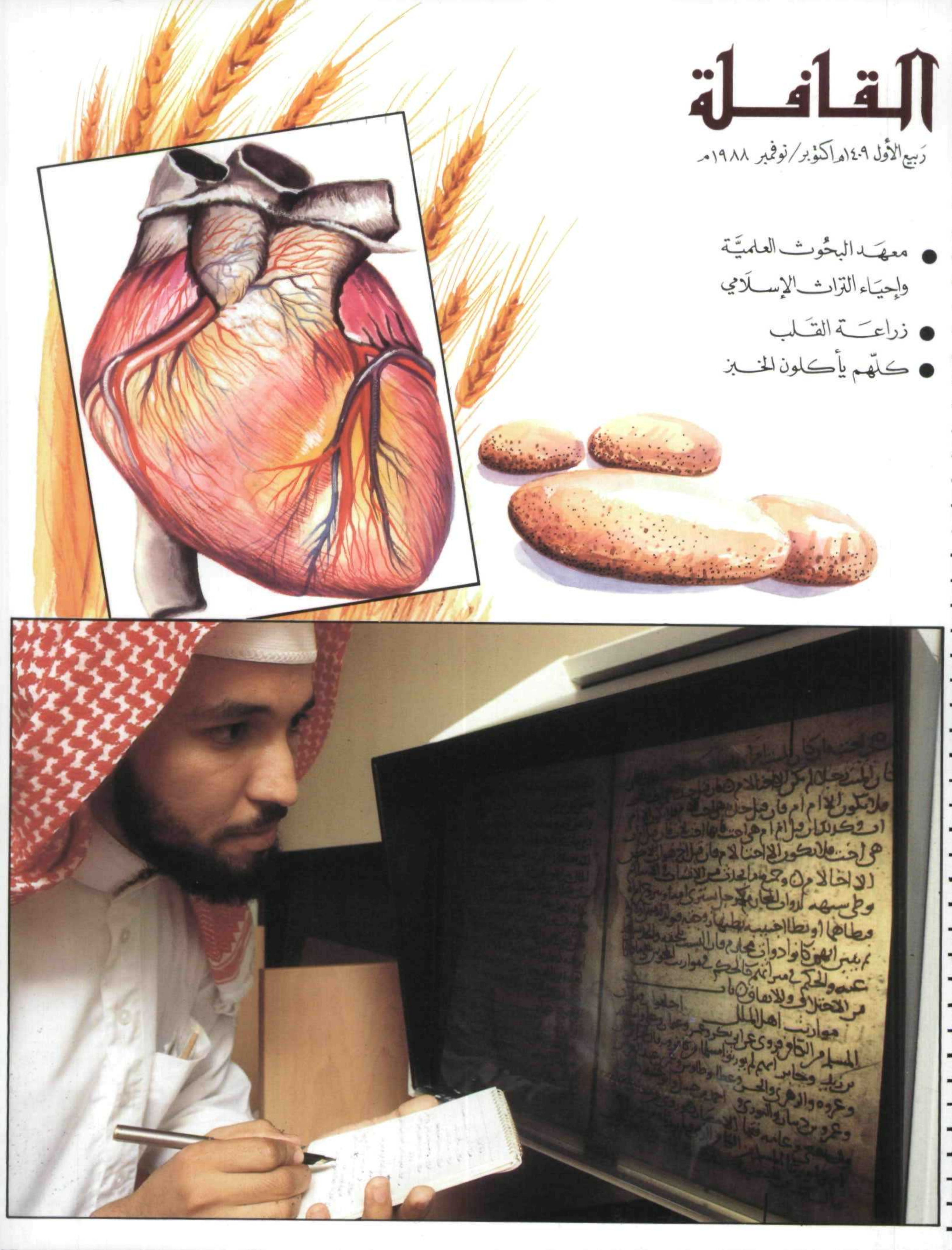

القافلة
ربيع الأول ١٤٠٩هـ/أكتوبر/نوفمبر ١٩٨٨م
معهد البحوث العلمية
وإحياء التراث الإسلامي
زراعة القلب
كلهم يأكلون الخبز

القافلة

THE CARAVAN - OCT./NOV.1988

ربيع الأول ١٤٠٩هـ/ أكتوبر/ نوفمبر ١٩٨٨م
العدد الثالث - المجلد السابع والثلاثون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

---*---

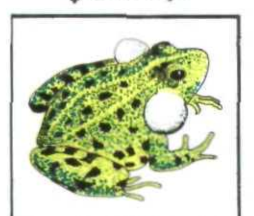
توزع مجاناً

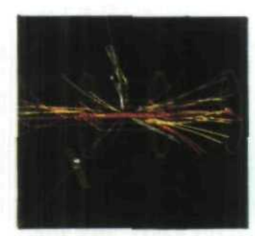
---*---

المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبوكشك

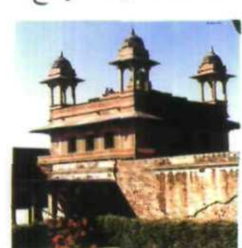
---*---


معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي


التكيف


تحت الارض يبحثون عن وحدة الكون


سطعت ثنيات الوداع


مدينة الفتح الاسلامية في سيكري

صورة الغلاف: الطالب محمد احمد الازوري يقوم بتحقيق مخطوطة «لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني، لرسالة الدكتوراه.

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٨٧٥٦٣٩٢

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM

معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي

بقلم : سليمان نصر الله / هيئة التحرير

منذ نشأت جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، إهتمت بالبحث العلمي ، كدعامة قوية لتحقيق أهدافها السامية ، فبادرت إلى تأسيس معاهد ومراكز بحوث متخصصة ، تساند رسالة الجامعة ، ولعل معهد البحوث العلميّة واحياء التراث الاسلامي ، الذي يحتضن عدداً من مراكز البحوث المختلفة ، يأتي في طليعة معاهد الجامعة . وينعكس دور هذا المعهد ليس على هيئة التدريس في الجامعة وطلابها فحسب ، بل على الباحثين والعلماء وطلاب العلم في أرجاء العالم الاسلامي . ويحتل إحياء التراث الاسلامي في هذا المعهد منزلة رفيعة ، تتوفر عليه نخبة متميزة من العلماء والباحثين والأساتذة البارزين ، الذين يبذلون جهوداً كبيرة في البحث عن كتب التراث الإسلامي النادرة ، ثم يعكفون على تحقيقها تحقيقاً علمياً منهجياً ، يتضمن التصحيح والتمحيص والمراجعة والتدقيق والترتيب ، لإخراج هذه الكنوز النفيسة إلى النور بعد أن مرت عليها ستون وهي حبيسة في مخطوطاتها الأساسيّة لتكون في متناول الدارسين والباحثين .



الشيخ محمد علي الصابوني، احد المحققين البارزين العاملين في مركز احياء التراث الاسلامي.

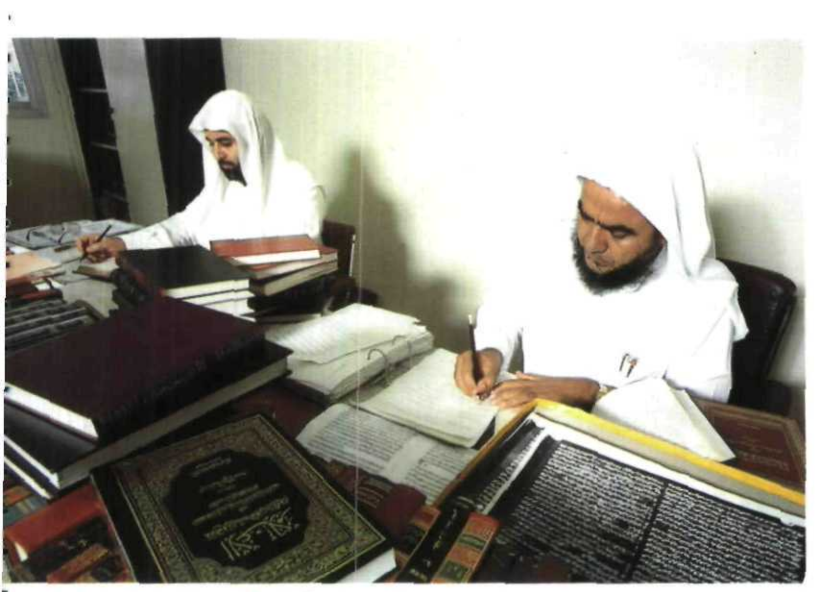
تستمد الجامعة، أية جامعة، مكانتها المرموقة ومقومات وجودها واستمرارها من نشاط الباحثين والعلماء فيها، ومدى اسهامهم في خدمة الحضارة والانسانية عبر بحوثهم القيمة. وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، رغم حداثتها، أولت البحث العلمي أهمية كبيرة، اذ بادرت الى إنشاء عدد من المراكز العلمية المتخصصة، التي تجسد رسالة الجامعة، وتلعب دورا بارزا في خدمة العلم والمعرفة. هذه المراكز العديدة، التي تقع تحت مظلة الجامعة، تقدم اليوم خدمات جليلة في شتى المجالات الدراسية العليا في الجامعة، وكذلك الباحثين والمحققين والاساتذة، عن طريق إجراء العديد من البحوث، التي تعالج الكثير من المشكلات والقضايا المعاصرة في المجتمع السعودي بشكل خاص، والمجتمع الاسلامي بشكل عام. ولعل من المفيد أن نذكر بأن حكومة خادم الحرمين الشريفين تغدق بسخاء على معاهد البحوث، لتمكينها من تأدية رسالتها على الوجه الأمثل.



الدكتور حمزة بن حسين الفعر، عميد معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي.

نشأة المعهد وتطوره

ولكي نقف على الدور الذي يلعبه «معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي» والمهام المنوطة به، كان لنا لقاء مع عميد المعهد الدكتور حمزة بن حسين الفعر، الذي حدثنا عن هذا المركز الذي أنشيء عام ١٤٠٦هـ، قائلا: البحث العلمي هو حجر الزاوية في الجامعات، ولذلك نجد الجامعات على اختلافها وتنوعها في جميع أنحاء العالم تفسح له مجالات كبيرة، وتدعمه دعما سخيا، حتى يستطيع أن يتقدم ويؤتي ثماره النافعة، التي تعود بالخير والنماء على البلد الذي يوجد فيه أولا وعلى غيره ثانيا. ولا يتقدم البحث العلمي بدون ذلك، وبدون ازالة العوائق التي تعترض سبيله. وان من أهم معوقات البحث العلمي قلة الامكانات سواء منها المادية أو البشرية. ويطيب لي أن أقول ان الامكانات البشرية متوفرة في جامعة أم القرى، فهي تضم نخبة ممتازة من العلماء الأجلاء في تخصصات علمية عديدة. ومن ناحية الامكانات المادية فإن الدولة تغدق بسخاء على مراكز البحوث، وما يلزمها من مبان ومعامل وتجهيزات أساسية. وجامعة أم القرى قطعت شوطا لا بأس به ــ ولله الحمد ــ في مجال البحث العلمي، وقد بدأت النواة الأولى للبحث العلمي في الجامعة بإنشاء مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي، وكان تابعا لكلية الشريعة بمكة المكرمة، عام ١٣٩٦هـ، يوم أن كانت فرعا من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. وقد كانت الكلية في حينها تضم تخصصات اللغة العربية وتخصصات الدعوة وأصول الدين. ثم انشىء في عام ١٣٩٦هـ مركز في كلية التربية باسم «مركز البحوث التربوية والنفسية»، وكانت كلية التربية تضم تخصصات التربية وعلم النفس وتخصصات العلوم الاجتماعية والتطبيقية. وعندما أنشئت جامعة أم القرى في عام ١٤٠١هـ، أخذت الجامعة في التوسع، وأنشئت فيها كليات جديدة مثل كلية الدعوة وأصول الدين، وكلية اللغة العربية وآدابها، وكلية العلوم التطبيقية والهندسية، وكلية العلوم الاجتماعية. ونتيجة لذلك أصبحت الحاجة ماسة الى تطوير البحث العلمي وتوسيع مداه، فأنشيء تبعا لذلك مركز لبحوث العلوم التطبيقية والهندسية، ومركز للبحوث الاجتماعية. وعندما تعددت هذه المراكز واتسعت مهماتها، برزت فكرة توحيد



الشيخ محمد صالح بن عبدالعزيز المراد وهو عاكف على تحقيق كتاب «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد». والدكتور عبدالقيوم عبدرب النبي وهو منهمك في تحقيق كتاب «تكملة الاكمال»

كل الجهود المتعلقة بالبحث العلمي في ادارة واحدة، تجمع شتاتها وتنسق أعمالها وتوحد جهودها، وتوفر كل ما من شأنه دفع عجلة البحث العلمي الى الأمام، فشكلت لجنة لدراسة هذا الموضوع وتقديم اقتراحها الى مجلس الجامعة. وبعد أن تم ذلك رفع الأمر الى المقام السامي، فصدرت الموافقة السامية على إنشاء «معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي» بالجامعة في ١٤٠٦/٦/٨هـ. وقد صدرت اللوائح الخاصة بالمعهد، والتي تنظم سير العمل فيه وتحدد أهدافه، وصادق عليها المجلس الأعلى للجامعة في ١٤٠٧/٢/٣هـ، ثم شكلت مجالس مراكز البحوث بالمعهد وراحت تمارس نشاطاتها.

وحول الاغراض التي أسس المعهد من أجلها والأهداف التي يسعى الى تحقيقها، قال الدكتور الفعر: يهدف المعهد الى تدعيم رسالة الجامعة، وتشجيع البحث العلمي في مختلف ميادينه، والعناية بالتراث الاسلامي، وربط الجامعة بالمجتمع في إطار القيم الاسلامية، عن طريق:

* وضع سياسة للبحث العلمي، وتنظيم الوسائل المناسبة لتنفيذ تلك السياسة باستخدام الطاقات البشرية والامكانات المادية التي تساعد على تحقيق ذلك.
* إبراز الفكر الاسلامي ومنجزاته في تاريخ الحضارة والعلوم، والنهوض بالدراسات والبحوث العلمية والعملية.
* الالتزام بالمعايير الاسلامية في ضوء العقيدة الاسلامية الصحيحة في جميع البحوث العلمية والنشاطات الأخرى.
* جمع التراث الاسلامي والعناية به وفهرسته وتحقيقه وتيسيره للباحثين ونشره.
* تقديم الاستشارات العلمية والتخصصية في جميع مجالات المعرفة داخل الجامعة وخارجها.
* تشجيع أعضاء هيئة التدريس بالجامعة على إجراء البحوث العلمية في مختلف التخصصات التي تثري العلم وتخدم المجتمع.
* التعاون مع الجامعات والهيئات العلمية ومعاهد ومراكز البحوث في العالم في مجال البحث والترجمة والتحقيق وتبادل المعارف والخبرات.
* إجراء مسح للبحوث العربية والاجنبية التي تمت في مجال البحث العلمي وترجمة ونشر ما يصلح منها للنشر.
* تهيئة الوسائل والامكانات اللازمة للمتفرغين تفرغا علميا من بين أعضاء هيئة التدريس والباحثين في الجامعة وغيرها، وتمكينهم من إجراء أبحاثهم في جو علمي.
* العمل على نشر نتائج البحث العلمي وتوفير وسائل التوثيق العلمي لتسهيل مهام الباحثين والمحققين.
* تقديم المشورة العلمية لطلاب الدراسات العليا في مختلف التخصصات.
* استخدام وتطويع التقنية العلمية بما يتلاءم مع ظروف البيئة والمجتمع.


يوفر معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي كل ما يحتاج اليه طلاب الدراسات العليا والباحثين من مخطوطات وكتب وصور.


الشيخ محمد حسن ابو العزم يقوم بمراجعة كتاب «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث».



يعقد مدير مركز احياء التراث الاسلامي اجتماعات دورية يحضرها المحققون والباحثون لمناقشة كثير من الأمور المتعلقة بتحقيق كتب ومخطوطات التراث الاسلامي التي يجلبها المركز من جميع أنحاء العالم.

مراكز العلوم العلمية والأعمال البحثية

يضم معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي حاليا سبعة مراكز هي: مركز إحياء التراث الاسلامي، ومركز بحوث الدراسات الاسلامية، ومركز التعليم الاسلامي، ومركز بحوث اللغة العربية، ومركز بحوث العلوم الاجتماعية، ومركز البحوث التربوية والنفسية، ومركز بحوث العلوم التطبيقية. ولكل مركز من تلك المراكز مجلس علمي خاص به يتألف من عدد من المتخصصين. وللمعهد مجلس علمي يتألف من مديري المراكز ويرأسه عميد المعهد الدكتور حمزة بن حسين الفعر. ويضم المعهد مكتبة خاصة به تحتوي على أهم المراجع التخصصية التي ينشدها الباحثون، بالاضافة الى مكتبة الميكروفيلم التي تحتوي على نحو ٢٥ ألف مخطوط، ومكتبة الميكروفيش التي تضم عددا كبيرا من الشرائح العلمية الملونة. كما أن للمعهد حاسباً آلياً يسهم في تقديم خدمات عديدة للباحثين والمحققين. وتقوم ادارة النشر في المعهد بطبع عدد كبير من الكتب والبحوث العلمية. ولتصريف مهامه على الوجه الأكمل، يتعاون المعهد مع الأقسام والكليات والأساتذة المختصين داخل الجامعة، ويتبادل الخبرات المشتركة مع الجهات المماثلة من معاهد ومراكز البحوث داخل المملكة وخارجها، منها على سبيل المثال لا الحصر، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، ومدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية. ويتصل المعهد بالباحثين من خارج جامعة أم القرى للاستفادة من خبراتهم وبحوثهم، بالاضافة الى الاتصال بمراكز علمية هامة في العالم العربي والاسلامي. وتتنوع بحوث ودراسات المعهد تبعا لتنوع الاختصاصات فيه وتعدد المراكز. وقد تناول التحقيق ما ينوف عن خمسين كتابا من كتب التراث حتى الآن، شملت التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والعقائد، وأصول الفقه، والفقه الاسلامي، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ والتراجم، والأدلة والفهارس. ويصدر المعهد نشرات تعليمية إسلامية وتربوية متنوعة، ومؤلفات في مجالات عديدة باللغتين العربية والانجليزية، الى غير ذلك من نشرات وبحوث. ويتولى المعهد طبع بعض الرسائل الجامعية ذات الأهمية العلمية. وفي سبيل إحياء التراث الاسلامي يبذل المعهد جهودا كبيرة في جمع المخطوطات النفيسة من أمهات مكتبات العالم. ويحرص المعهد على إحياء كل ما كتبه العلماء المسلمون الأقدمون في جميع فنون وميادين المعرفة، مما لا يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله، وبشكل خاص ما يتعلق بالعلوم الاسلامية كالتفسير وعلوم القرآن، والحديث ومصطلحه ورجاله، والتاريخ الاسلامي، والسيرة النبوية، والفقة وأصوله، وغير ذلك، وقد نصت لائحة المعهد على السبل الكفيلة بإحياء التراث الاسلامي، عن طريق جمع التراث المخطوط من مصادره المختلفة، فلدى المعهد خطة عامة لجمع التراث الاسلامي المخطوط من مراكزه ومظانه المختلفة داخل المملكة وخارجها. ويضع المعهد برنامجا تنفيذيا سنويا

لما يمكن جمعه من مختلف العلوم. ويتحرى المعهد أفضل وسائل الاتصال مع المراكز والهيئات والأفراد التي تعنى بجمع التراث وحفظه، وتبادل مصورات المخطوطات أو الحصول عليها بالقيمة. ويهتم المعهد بعمل فهارس علمية مستوفية لمقتنيات مركز إحياء التراث الاسلامي من المخطوطات ومصوراتها أولا بأول ثم يقوم بنشرها للاستفادة منها، وهناك لجنة خاصة تتولى اعداد قوائم بالمخطوطات التي تختارها لتزويد المركز بها. ويتولى مركز إحياء التراث الاسلامي، ضمن مسؤولياته الاساسية، نشر التراث الاسلامي محققا تحقيقا علميا. ويتم التحقيق على أساس المنهج الذي يقره المركز، وفق قواعده في التحقيق. وتخضع كتب التراث المحققة لمراجعة علمية، للتأكد من التزام المحقق بالأصول والقواعد العلمية الواردة في المنهج. ويتم وضع خطة سنوية لتحقيق أهم كتب التراث في العلوم المختلفة، على أن يراعى في ذلك نصيب كل علم مما يحقق. ويشترط في المحقق المرشح من قبل المركز أن يكون ذا خبرة سابقة في تحقيق التراث الاسلامي، ومشهودا له بالقدرة في فنه. والمركز من ناحيته يوفر للمحقق المتفرغ والمعاون أكبر عدد ممكن من صور مخطوطات الكتاب الذي يحققه، ويمده بما يعينه على إخراج الكتاب إخراجا علميا.

تحقيق كتب التراث عملية مضنية

قمنا بجولة على أقسام المعهد، عرجنا فيها على مكتبة المعهد التي تزخر بالمخطوطات النفيسة والمراجع القيمة، ومكتبة الميكروفيلم، وغرفة القارئات، وقسم التصوير، وقسم الأجهزة القارئة الطابعة، ومكتبة مركز إحياء التراث الاسلامي حيث إلتقينا بعدد من العلماء الأجلاء العاكفين على تحقيق كتب التراث، منهم الشيخ محمد علي الصابوني صاحب كتاب «صفوة التفاسير» في ثلاثة مجلدات، وهو يقوم بتحقيق كتاب «معاني القرآن الكريم» للامام أبي جعفر النحاس من علماء القرن الرابع الهجري المتوفى سنة ٣٣٨هـ، ولا يوجد من هذا الكتاب إلا نسخة واحدة في البلاد الاسلامية، وقد تم الحصول على قسم من المخطوطة من المكتبة المصرية بالقاهرة والقسم الآخر من مكتبة «اورهان غازي» في مدينة بورصه في تركيا. هذا الكتاب النفيس يقع في ستة مجلدات ضخمة استغرقت من الشيخ الصابوني وقتا طويلا ليخرجه الى النور حيث ينتفع به أهل العلم. ثم عرجنا على الشيخ محمد صالح بن عبدالعزيز المراد، وقد شرع في تحقيق كتاب «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» للامام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي المتوفى سنة ٨٣٢هـ. وقد عثر على نسختين من هذه المخطوطة النادرة في دار الكتب المصرية، وهذا الكتاب هو ذيل على كتاب «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» لابن نقطة الحنبلي. وإلتقينا بالدكتور عبدالقيوم عبدرب النبي، وهو يقوم بتحقيق



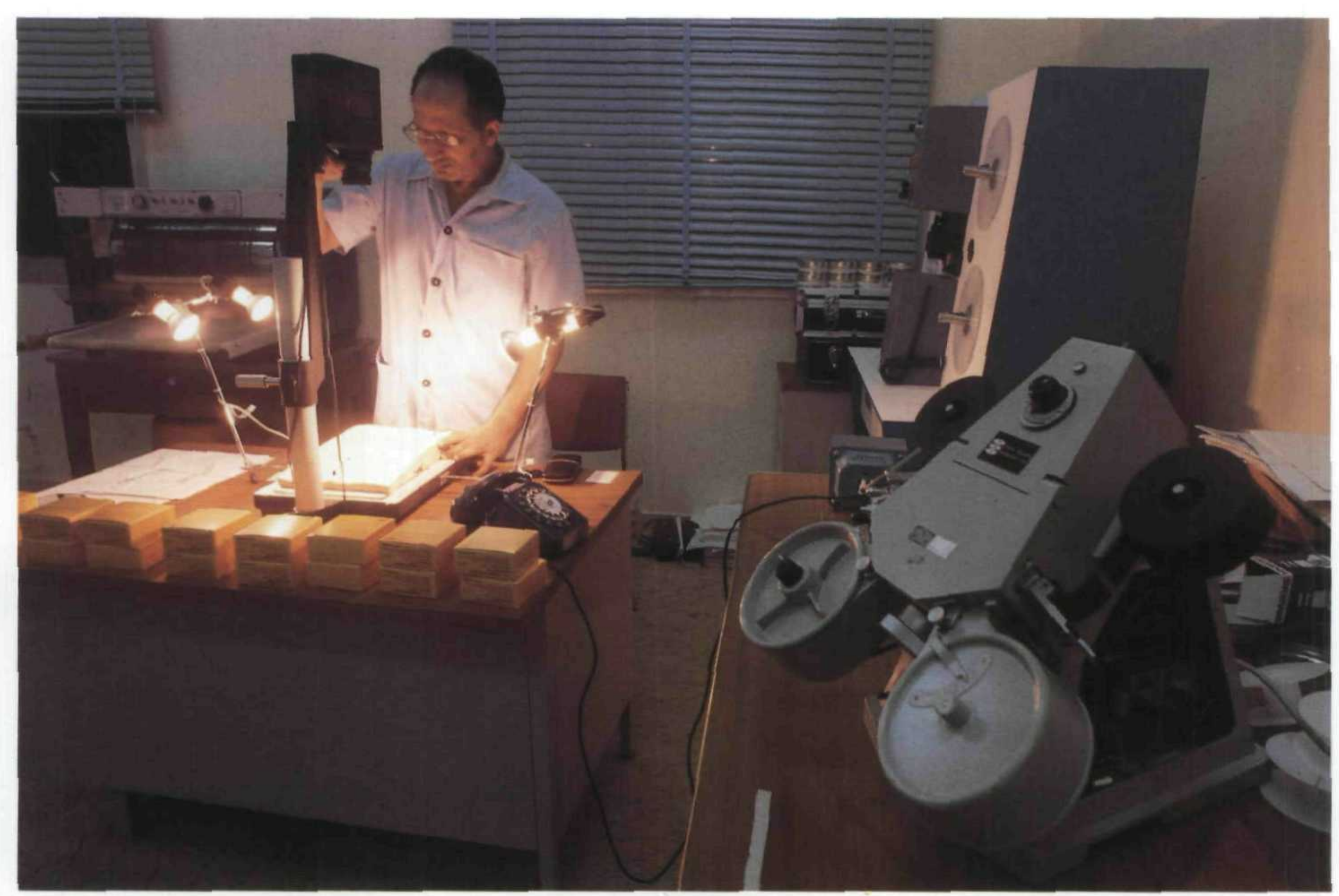
الدكتور مصطفى عبدالواحد، مدير مركز احياء التراث الاسلامي، يتحدث عن الخطة المنهجية التي يتبعها علماء المركز في تحقيق كتب التراث العربي الاسلامي.

الجزء الثالث من كتاب «تكملة الاكمال» للحافظ أبي بكر بن عبدالغني المعروف بإبن نقطة الحنبلي المتوفى سنة ٦٢٩هـ. وقد تم طبع المجلدين الأول والثاني، ويقع الكتاب في ستة مجلدات. والتقينا أيضا بالشيخ محمد حسن أبو العزم والفيناه يراجع مسودات كتابه «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» للامام الحافظ ابي موسى محمد بن ابي بكر ابي عيسى المديني الاصفهاني، المتوفى سنة ٥٨١هـ، علاوة على قيامه بإعداد الفهارس المتنوعة للكتاب كله. وانتهى بنا المطاف في مكتب الدكتور مصطفى عبدالواحد، مدير مركز إحياء التراث الاسلامي، ورحنا معه في حديث متشعب، تناول فيه الدكتور عبدالواحد قصة تأسيس المركز، وطرق التحقيق وأساليبه الحديثة، والجهود التي تبذل في سبيل إحياء التراث الاسلامي العريق. والدكتور عبدالواحد هو واحد من أبرز المعنيين بتراثنا الاسلامي، تأليفا وتحقيقا وإخراجا ونشرا، وله ما ينوف على عشرين من المؤلفات القيمة، والكتب المحققة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، «السيرة النبوية» للامام أبي الفداء اسماعيل ابن كثير، وتقع في أربعة مجلدات، وتحتوي على ترجمة وافية لابن كثير. وله اهتمام خاص بتحقيق ما صنفه ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج المتوفى سنة ٥٩٧هـ، وقد كان علامة عصره في التاريخ، والحديث، والأدب، وله نحو ثلاثمائة مصنف، جلها مفقود، منها «صولة العقل على الهوى» و «ذم الهوى» الذي حققه الدكتور مصطفى عبدالواحد.



بعض طلاب الدراسات العليا يستخدمون اجهزة قارئة في معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى.

حدثنا الدكتور عبدالواحد عن المركز قائلا: هذا المركز ليس جديدا، بل الجديد فيه هو التسمية، فقد انشيء عام ١٣٩٦هـ، وكان الغرض من إنشائه هو الجمع بين الدراسات وفنون المعرفة وبين إحياء التراث. بيد ان ما حدث هو أن المركز إشتغل بإحياء التراث منذ نشأته، فأصدر حتى الآن ما يربو على ستين كتابا محققا، وكان نصيب المركز من البحث العلمي ضئيلا. فلما صدر قرار انشاء «معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي» تولت المراكز الأخرى مهمة البحوث العلمية وبقي لهذا المركز مهمة إحياء التراث الاسلامي. وقد استهل المركز عمله بجمع المخطوطات من أنحاء العالم العربي والاسلامي واوروبا وأمريكا. إن الجهد الذي بُذل في جمع عشرات الآلاف من المخطوطات التي يملكها المركز لم يكن وليد الساعة، بل هو جهد استغرق ما يزيد على عشر سنوات. فلم يكن هذا المركز يملك شيئا عند إنشائه إطلاقا، ويمكن القول أننا بدأنا من الصفر. وقد سلكت حركة جمع المخطوطات سبلا متعددة، كان منها إرسال البعثات والوفود للحصول على أصول المخطوطات التي كنا نبحث عنها، فهي مخطوطات عربية في فنون المعرفة المختلفة، كاللغة، والأدب، والتاريخ، والطب، والصيدلة، والهندسة، والزراعة، والفروسية والخيل، وغيرها. ولم تترك الجامعة منفذا أو مركزا في العالم إلا واتصلت به. فهناك مكتبات مشهورة في العالم تحتفظ بمخطوطات عربية نادرة، في تركيا، ومصر، وهنا في المملكة العربية السعودية كمكتبة عارف حكمت ومكتبة الحرم المكي. والملاحظ أن أندر المخطوطات العربية موجود لدى الغربيين ولا سيما الاوروبيين، فمكتبة جامعة ونستون الامريكية ومكتبة الكونجرس تحتويان على مخطوطات عربية نفيسة. لقد أدرك الغربيون قيمة تراثنا العربي منذ زمن بعيد، وعرفوا انه تراث نفيس فتسابقوا لاقتنائه ودراسته، وتسربت مخطوطات لا تحصى من الوطن العربي إبان الحملة الفرنسية، حتى أن المكتبة الوطنية بباريس تمتلك عددا كبيرا من المخطوطات النفيسة، التي تعتبر جزءا أصيلا من تراثنا. ويحزنني القول أن الانحطاط الفكري الذي خيم علينا في أواخر عصور الدولة العثمانية أفقدنا معرفة قيمة هذا التراث بل وكيفية صيانة ما تبقى منه. ورغم أن جزءا لا يستهان به من تراثنا قد انتقل بطرق مشروعة وأخرى غير مشروعة الى الغرب، إلا أننا لا نملك إلا أن نشكر جهات عديدة حافظت على ذلك التراث، وقد آن الأوان لأن يجد علماؤنا ومراكز بحوثنا في البحث عن كتب التراث، أينما وجدت، وبكل الوسائل المتاحة، ليتسنى لأبنائنا الاطلاع على جهود علمائنا الاقدمين. أذكر أنني عندما عزمت على تحقيق كتاب «ذم الهوى» لأبي الفرج الجوزي، أحد العلماء المسلمين البارزين، لم أعثر على نسخة صحيحة من هذا الكتاب في أي من المكتبات في بغداد ودمشق والقاهرة، ولكنني وجدتها في مكتبة جامعة «توبنجن» في المانيا الغربية. وقد تفضلت هذه الجامعة بإرسال صورة منها على ميكروفيلم. ولعلك تعجب اذا عرفت ان للجوزي نحو ثلاثمائة كتاب ولا يوجد منها في البلاد العربية سوى نحو ثلاثين كتابا، أما اكثر كتبه فهي موجودة في البلدان الاوروبية. لقد فطن الغرب الى أن التراث العربي هو تراث غني ومتنوع، فتسابقوا اليه، أما نحن فقد فرطنا فيه. وعلى أي حال، فإن ما يقوم به مركز إحياء التراث الاسلامي يعتبر إسهاما واضحا في حفظ هذا التراث وتجميعه من مظانه المختلفة، لأنه استطاع بامكاناته المادية المتاحة أن ينفق بسخاء على اجتلاب هذه المخطوطات من كافة انحاء العالم. ثم تأتي المرحلة الثانية في عمل المركز ألا وهي نشر هذا التراث بعد تحقيقه. ولدى سؤال الدكتور عبدالواحد عن الصعوبات التي قد يواجهونها في تحقيق وقراءة كتب التراث الاسلامي قال: الصعوبات قائمة في كل تحقيق، ولكن عندما تتوفر النسخ الواضحة وتتعدد، تضمحل الصعوبات، ولا شك أن أزمات معينة قد تواجه المحقق في قراءة النصوص فيبذل قصارى جهده لتذليلها. أما عن سلاح المحقق ومؤهلاته يقول الدكتور عبدالواحد: من يتصدى لتحقيق التراث يجب أن يكون عالما بفنون شتى، فلا يقتصر على معرفة من جانب واحد، ويحتاج بصورة خاصة الى معرفة كافة علوم اللغة العربية، وأن يكون متبحرا في الفن الذي يعالجه. فإذا عالج كتابا في التراث الديني كالتفسير والحديث والفقه، وجب أن يكون متخصصا فيها عالما بمصطلحاتها، وأن يتسلح بعدة قوية، لكي يستطيع اولا قراءة النص قراءة صحيحة وضبطه ضبطا صحيحا، ثم التعليق عليه بما يوضح غوامضه وبما يصحح ما قد يقع فيه من إلتباس. فالتحقيق في الواقع أصعب عملا من التأليف، فالمؤلف يكتب العبارة التي يريدها ويعبر



تصوير إحدى المخطوطات يقوم بها احد الفنيين لتحويلها الى مصغرات فلمية.

عن الفكرة التي تتراءى له كما يحلو له دون التقيد بشيء، أما المحقق فيجد نفسه مقيدا من كل جانب، فهو أمام نص يريد أن يخرجه للناس سليما. وحول العلاقة بين عمل المحقق وعمل الناقد، قال الدكتور عبدالواحد: المحقق هو ناقد للنص الذي يعالجه، بمعنى انه اذا وجد في النص تناقضا نبّه اليه، وإذا وجد فيه قصورا في المعرفة في جانب معين أو نقصا في مسألة ما فإنه يشير الى المراجع التي عالجت هذه المسألة. المحقق الأصيل لا يقتصر عمله على نسخ المخطوطات وتصحيحها ونشرها، كما يظن البعض، وإنما يشرح غوامض الكتاب، ويعلق عليه، ويشير الى مواطن الضعف فيه، انه ينصب من نفسه رقيبا على المؤلف، ومن هنا كان عمل المحقق شاقا وعبؤه ثقيلا. أما التحقيق التجاري الذي نراه في الأسواق فهو مشكلة خطيرة، فالكثير من كتب التراث يتعرض لعملية تشويه ومسخ واسعتين من قبل أنصاف المتعلمين وبعض الناشرين، وأصبح الانسان لا يثق بما يقرأ لكثرة ما يجده من أخطاء وتحريفات. فلا يحق لكل من يستطيع القراءة والكتابة أن يلبس رداء التحقيق، ويصول ويجول دون وازع أخلاقي. كنت يوما أقرأ كتابا للحكيم الترمذي، محققا من قبل أحد هؤلاء المحققين التجاريين، فوقفت عند عبارة «الملائكة الكوريون» واستولت علي الدهشة وتساءلت: هل هناك ملائكة من كوريا؟ ولدى البحث في بعض المراجع تبين لي أن هناك ملائكة يطلق عليهم «الكروبيون» وهم سادة الملائكة. ذلك المحقق الأمي الذي ربما استعصت عليه قراءة العبارة، وجد أن أسهل شيء عليه هو أن يكتب «الكوريين». وهذا مثال واحد على الأخطاء الفادحة التي يرتكبها أمثال ذلك المحقق، ذو العقلية التجارية المحضة. فالناشر التجاري يبحث عن المحققين الاميين الذين يهمهم فقط كسب دراهم معدودة ووضع اسمائهم على كتب التراث كمحققين، دون أن يكونوا أهلا لهذه المهمة. وهذا هو الفارق بين ما ينتجه مركز علمي متخصص وبين محققين تجاريين. فلدينا في هذا المركز جهاز متفرغ للتحقيق، قوامه أساتذة عملوا في هذا المجال سنوات طويلة ولهم خبرات سابقة وكتب محققة، فانتدبهم المركز منذ نشأته للقيام بتحقيق ما يختاره من كتب التراث. وعملية التحقيق تخضع لضوابط عديدة وخطة منهجية معتمدة، يلتزم بها المحقق. وبعد انتهاء المحقق من عمله، يعرضه على مراجعين أو مقومين لابداء الرأي فيه، وغربلته أخذا وردا، حتى تتم الموافقة على طبعه ونشره. ويتعاون المركز مع اساتذة الجامعة فيما يتعلق



جانب من قسم الافلام في المعهد.

احد طلاب الدراسات العليا في مكتبة المعهد الغنية بكتب التراث والمخطوطات النادرة.

بتحقيق بعض كتب التراث. ولدينا الآن في المركز مكتبة للمراجع تضم نحو ٥٠,٠٠٠ كتاب ونحو ٢٥ الف مخطوطة.

وتضطلع المراكز الأخرى التابعة لمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي، بدراسات وأبحاث علمية في نطاق تخصص كل منها، فمركز التعليم الاسلامي يقوم بإعداد البحوث في موضوع التعليم الاسلامي ومناهجه ومقرراته، وكذلك تدريب المدرسين من خلال الدورات المتخصصة وبرامج الاعداد التربوي. ويعمل هذا المركز على توثيق الروابط والتعاون بين الدول الاسلامية في مجال التعليم الاسلامي، علاوة على إقامة المؤتمرات والندوات التي يشارك فيها العلماء والمفكرون. ويقوم هذا المركز بإصدار نشرة شهرية وله مجلة تنشر البحوث الاكاديمية التي تعالج كثيرا من قضايا التربية والتعليم في البلاد الاسلامية. أما مركز أبحاث العلوم التطبيقية والهندسية فيتولى القيام بالأبحاث التطبيقية في المجالات العلمية البحتة. ويقوم مركز البحوث التربوية والنفسية الذي أنشىء عام ١٣٩٤هـ بإعداد بحوث في المجالات التربوية والنفسية بالتعاون مع بعض الجهات المعنية ذات العلاقة بما يتم دراسته من أبحاث، ويقوم بإصدار مجلة التربية، وعقد الندوات والمؤتمرات على المستويين المحلي والدولي، كما يقدم الاستشارات العلمية والمعاونة في إجراء التطبيق الميداني للبحوث التي يعدها طلاب الدراسات العليا بالجامعة والأجهزة الحكومية. ويتولى مركز بحوث العلوم الاجتماعية الدراسات الانسانية الهادفة الى خدمة المجتمع ودراسات البيئة الطبيعية والبشرية واستغلال وتنمية الموارد. ويعنى مركز بحوث اللغة العربية بكل ما يتصل بلغة الضاد من علوم.

وبعد فإن معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي، رغم حداثته قد أثبت وجوده، بفضل الله سبحانه وتعالى وجهود العاملين المخلصين فيه، واستطاع في غضون فترة وجيزة أن يقف على قدم المساواة مع معاهد البحوث، داخل المملكة العربية السعودية وخارجها □

تصوير: علي عبدالله المبارك/ارامكو

شجاعة العربية ونظرية الحمل على المعنى

بقلم: د. صاحب أبو جناح / بغداد

منذ أكثر من ألف عام كتب واحد من عشاق العربية المفتونين بها المتأملين اسرارها ودقائقها، يقول: انني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة، ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به امام غلوة (غاية) السحر(١).

هذا الفقيه اللغوي كتب أيضا في موضع آخر يقول: لو أحست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة، وما فيها من الغموض والرقة والدقة، لاعتذرت من اعترافها بلغتها، فضلا عن التقديم لها والتنويه بها. وذلك انّا نسأل علماء العربية، ممن أصله عجمي، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه، عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه. سألت غير مرة أبا علي عن ذلك فكان جوابه نحوا مما حكيته. وايضا فإن العجم العلماء بلغة العرب، وان لم يكونوا علماء بلغة العجم، فإن قواهم في العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية، وتؤنسهم بها، وتزيد في تنبيههم على احوالها لاشتراك العلوم اللغوية واشتباكها، وتراميها الى الغاية الجامعة لمعانيها،(٢) ولم نر احدا من أشياخنا فيها. كأبي حاتم وبندار وأبي علي وفلان وفلان يسوون بينهما، ولا يقربون بين حاليهما، وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال لوضوحه عند الكافة.(٣)

لعلنا لا نذهل أن يكون صاحب هذه النصوص التي انطوت على نظريات وأفكار لغوية رائدة لم يكتب ما كتب ويقرر ما قرر بدافع من الحماس القومي أو الانتماء العرقي لأمة العرب، ولا باشارة من وال أو أمير، وهو لا ينتسب الى العربية انتساب سلالة بل ينتسب اليها انتساب ثقافة وفكر، فهو رومي الاصل عربي المنزع والولاء، وهو الذي يقول:

فـان أصبـح بلا نسب

فعلمـي في الـورى نسبي

ذلك هو شيخ العربية وعلامة القرن الرابع الهجري أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي المتوفى ببغداد سنة (٣٩٢ ــ ١٠٠٢م).

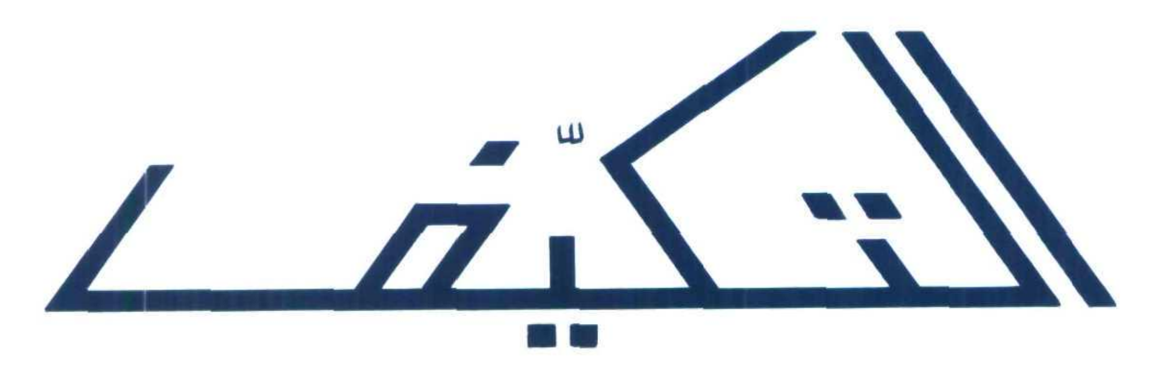
أبو الفتح هذا وضع مصنفا كبيرا في ثلاثة مجلدات، جرّده للحديث عن فلسفة العربية وقوانينها وسننها وأوضاعها، وحكمة العرب فيما لهجت به وآثرته من أساليب القول وألوان البيان، في شعرها ونثرها ومحاوراتها في حياتها اليومية.

فكان هذا المصنف النفيس، الذي سماه صاحبه «خصائص العربية» وعرف فيما بعد ــ اختصارا ــ بالخصائص، مرجعا لكل من عالج فقه العربية ومقاييسها وعللها من القدماء والمحدثين، وصارت نظرياته التي تضمنتها أبوابه التي جاوزت مائة وستين بابا، ضمت في داخلها مئات من الفصول، محورا

(١) الخصائص لابن جني ٤٧/١.

(٢) هذه نظرية لغوية رائدة لم يعرفها علم اللغة العام عند الغربيين إلا في عصرنا هذا عند الرواد أمثال سوسير وفندريس وغيرهما.

(٣) الخصائص ٢٤٣/١.



هل هو خاصية ضمن نطاق امكانيات المخلوق الحي الإرادية؟

بقلم: د. داود سليمان رضوان / الظهران

تقديم

كثيرا ما يقرأ المرء، أو يسمع من خلال وسائل الاعلام السمعية، أو يشاهد من خلال الوسائل المرئية عن خاصية التكيف. فقد شاهدت حديثا، مع جمع من الزملاء، حلقة من برنامج العلم والايمان الذي يعده ويقدمه الدكتور مصطفى محمود، حيث دارت احداث تلك الحلقة، بما اشتملت عليه من مادة علمية، حول موائمة خلقة الكائن الحي للبيئة التي يعيش فيها، أو ينمو ويترعرع بين أحضانها، أو يكمن فيها راقدا، الى أن يشاء له خالقه ان يهتز ويربو. وخلاصة ما دار حوله التعليق على المادة المشاهدة هو: خاصية التكيف.

من متابعتي للحوار خرجت بقناعة، ترقى الى مستوى اليقين، بأن الحوار لم يخرج عن مفهوم أو إطار امكانية تكيف الكائن الحي ذاتيا مع الظروف البيئية التي تحيط به، ولولا هذه الخاصية الذاتية للكائن الحي، لكان عليه ان يفنى وينقرض تاركا الساحة لمن هو أقدر منه على التكيف. وهنا قفز الى ذهني السؤال الذي جعلته عنوانا لهذه المقالة. هل التكيف خاصية ارادية؟ أي بمعنى انه خاصية تقع ضمن نطاق امكانات وقدرات المخلوق الحي الارادية، التي بامكانه اللجوء اليها متى شاء، وتسخيرها كيفما اراد، لخدمة اهداف ذاتية، سبق له أن حددها. أم أن التكيف، بمعنى المواءمة هو خاصية مخلوقة أودعها الله، البارىء عز وجل، فيما خلق من أشياء شتى، أم أنه (أي التكيف) خاصية مكتسبة بفعل الظروف البيئية التي يتعرض لها الكائن الحي، ومن ثم يقوم هو بتسخيرها لخدمته؟

منشأ فكرة التكيف

لقد نشأت فكرة التكيف، باديء ذي بدء، كنتيجة للمحاولات التي بذلها علماء الأحياء في سعيهم لفهم أسباب انقراض أصناف شتى من حيوان وطير ونبات وظهور فروقات فسيولوجية بين أفراد الجنس الواحد التي عاشت، أو لا تزال تعيش، تحت ظروف بيئية متناقضة على مر العصور المتعاقبة لمسيرة الحياة على ظهر كوكب الأرض. وقد وجدت هذه الفكرة لها ملجأ آمنا فيما عرف بنظرية النشوء والارتقاء، النظرية المعروفة بنظرية داروين.

وخلاصة هذه النظرية هو أن أصل الأنواع واحد، وأن الأجناس أو الأفراد المختلفة لنفس النوع (كضفدعة تعيش في بيئة رطبة يغلب عليها وجود المستنقعات، وأخرى تعيش في البحيرات الصحراوية التي تتعرض بين الحين والآخر للجفاف) استلت من الأصل الواحد وتميزت عن بعضها

البعض من خلال عملية أو خاصية التكيف، يدفعها الى ذلك حب البقاء أو المحافظة على الجنس أو النوع، وساعدها في الوصول الى بغيتها الظروف البيئية، من خلال عملية الانتقاء او الاختيار الطبيعي، حيث نفق من لم يستطع التكيف مع الظروف البيئية المستجدة، وبقي من كان باستطاعته ذلك من أفراد الجنس الواحد. وهنا تصل نظرية داروين الى أن بقاء الأنواع او الأجناس وتنوعها ما هو إلا نتيجة حتمية لامكانية التكيف الذاتي التي ساعد على سيادتها عملية الانتقاء الطبيعي، بعيدا عن أية قوة خارجية (خارج نطاق الطبيعة)، ليكون البقاء للاصلح.

استدراك لابد منه

التكيف ليس سوى كلمة ذات مضمون، اريد بها تفسير واقع ملموس تم التوصل اليه (الى هذا المضمون) من خلال محاولات نظرية. وصياغة نظرية النشوء والارتقاء ليس اكثر من محاولة لايجاد اساس نظري لفهم ظواهر او حقائق ملموسة. ومن المعروف ان من أهم ما يؤثر، ويعمل على تشكيل الكيفية التي تصاغ بها النظريات او التفسيرات النظرية، التي يقدمها العلماء في محاولاتهم لفهم ما يكتشفونه من مادة أو أدلة مادية علمية، هو مقدار ونوعية (بمعنى خلفية البناء الفكري) المعرفة التي يمتلكها العالم، ومن ثم امكانية تجرده من سيطرة فكرة بعينها، ومقدرته على وزن وتمحيص التفسيرات التي يسوقها بميزان موضوعي، لقياس مدى صحة أو مطابقة ما يقدمه من تفسير (أو شرح) نظري لظاهرة ما، بمقياس سليم. بالطبع تتأثر هذه المقاييس بدرجات متفاوتة بخلفية البناء الفكري للعالم، من حيث كون هذا البناء مستمدا جذوره من نظريات مادية صرفة أو متأثرا بالعقائد والأديان السماوية! أو هو مزيج تم تشكيله من تفاعل هذه وتلك.

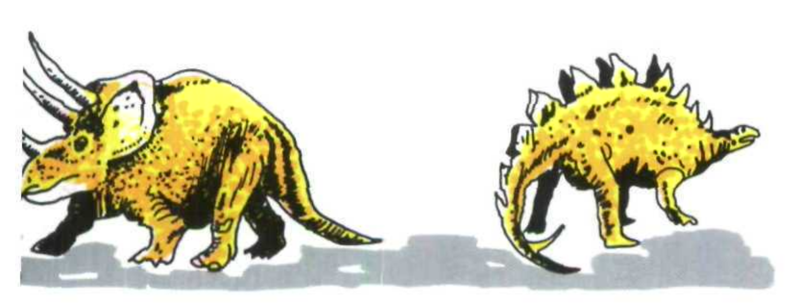
ليس اعتراضاً

بعد هذا الاستدراك، نعود الى الحلقة سالفة الذكر. ان ما شاهدته من مادة علمية قدمت في تلك الحلقة، كان قد عرض بكيفية جعلت من المادة العلمية شواهدا على صحة وصدق نظرية النشوء والارتقاء. حتى ان التعليق على المادة المشاهدة قد سلك نفس المنحى وسيطرت عليه مفاهيم تلك النظرية التي تقرر ان البقاء للاصلح يأتي من خلال امكانية التكيف وأن الفناء هو النتيجة الحتمية لانعدام امكانية التكيف، وكل ذلك بصورة ذاتية للكائن الحي.



ضفدعة تعيش في بيئة رطبة يغلب عليها اللون الأخضر وأخرى تعيش في بيئة صحراوية اكتسبت اللون الأصفر كل ذلك حدث بارادة الله تعالى لا برغبة المخلوق.

ليس المقصود من هذه المقالة ان تكون اعتراضا على ما قدم في الحلقة المذكورة من مادة علمية. فبقايا الحيوانات والطيور والنباتات (وكذلك الانسان) المنقرضة، هي شواهد مادية حقيقية على كون تلك الاحياء التي عاشت وعمرت سطح الأرض في الحقب الغابرة من حقب التاريخ. واختلاف التشريح الفسيولوجي لفردين من نفس النوع يعيشان في ظروف بيئية متناقضة شاهد مادي حقيقي على اختلاف وظائف أعضاء هذين الفردين بدرجة تسمح لكل منهما بمواءمة ظروف الوسط الذي يعيش فيه. ولكن التفسير الذي قدم لوجود هذا الاختلاف والاستنتاجات التي استلت من حقيقة انقراض وفناء أصناف وأنواع شتى من حيوان وطير ونبات على مر الحقب التاريخية المتعاقبة، هذا التفسير وهذه الاستنتاجات يتطلب منا التوقف عندها ومراقبتها بدقة لنزنها بميزان دقيق ونقيسها بالمقياس الصحيح الذي لا يخطيء ابدا. ويستند الى ثقافتنا، بشرط أن لا نتخلى عن الموضوعية العلمية. ان محاولة ايجاد قناعة أو يقين بأن امكانية التكيف خاصية ذاتية ارادية للكائن الحي بامكانه اللجوء اليها اراديا، متى شاء لمسايرة الظروف البيئية وتغيراتها، من خلال احداث تغير في خلقته، للمحافظة على حياته وبقاء نوعه، مدفوعا الى ذلك بدافع حب البقاء، وساعده على تحقيق سيادة العنصر أو الفرد الأصلح عملية الانتقاء الطبيعي، هي بلا شك مغالطة. فكيف؟



ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

في الحوار الذي دار بين النبي موسى، عليه السلام، وفرعون، كما أورده القرآن الكريم، سئل موسى عن ربه، فقال ﴿**قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ (طه ٥٠).

هذه الآية الكريمة ذات دلالة قاطعة على أن كل شيء خلق كما اراده الله وان كل شيء زوده خالقه بقابلية الهدى ﴿**الذي خلقني فهو يهدين**﴾ (الشعراء ٧٨) وان كل مخلوق (حي أم ميت) خلقه الله لمواءمة الظروف البيئية للوسط الذي يعيش وينمو فيه. فليس صدقا أو صحيحا، أن يقال أن الاختلاف في التشريح الفسيولوجي لفردين من نفس النوع أو الصنف، احدهما يعيش في ظروف بيئية متناقضة في خصائصها مع الظروف البيئية التي يعيش فيها الآخر، جاء كنتيجة لمحاولة تكيف كل منهما لظروف البيئة التي يعيش فيها. فليس صدقا ان نفسر زيادة سمك عظم الأرجل الخلفية لضفدعة اعتادت الحياة في البحيرات الصحراوية (التي تجف بين الحين والآخر، مما يضطر الضفدعة الى دفن نفسها في التراب، على أعماق تسمح لها بالوصول الى درجة معقولة من الرطوبة لترقد هناك الى أن يشاء الله لها الخروج ثانية. يساعدها في هذه العملية (عملية الحفر في التربة الصلبة) قوة عظام أرجلها وظفر قوي زودت به تلك الأرجل) عن عظم ارجل ضفدعة أخرى اعتادت الحياة في البحيرات التي لا تجف (وهي لذلك أي الضفدعة ليست بحاجة الى الحفر في التربة لتدفن نفسها، وبالتالي غير مزودة بعظام أرجل سميكة وأظافر مناسبة لعملية الحفر)، بأنه جاء نتيجة لمحاولة احد افراد هذا النوع من الحيوان للتكيف مع الظروف البيئية للوسط الذي يعيش فيه. فلو ان الضفدعتين كانتا في بداية الأمر ذات أصل واحد، ثم اخذت حركية التكيف تعمل عملها في نسل الأصل لتنتج صنفين مختلفين بدرجة تبقى على انتمائها لنفس النوع الأصلي مع تزويد كل منهما (كل فرد منسول لاحق) بامكانية تسمح له بالعيش تحت ظروف بيئية متباينة، لو كان الأمر ذلك (كما تفترضه نظرية النشوء والارتقاء)، فان الأب الاصلي لهذين الصنفين يفترض فيه ان يكون قادرا على ما يلي:

١ ـ معرفة الغيب والتنبوء بالتقلبات والتغييرات البيئية وبما ستحدثه من إخلال في طبيعة حياته الآنية.

٢ ـ معرفة الكيفية الصحيحة للتصرف بما يضمن مواجهة التأثيرات المتوقعة في الظروف البيئية والتغلب على الآثار السلبية لها أو التكيف بما يعمل على تلاشي فعل هذه التأثيرات.

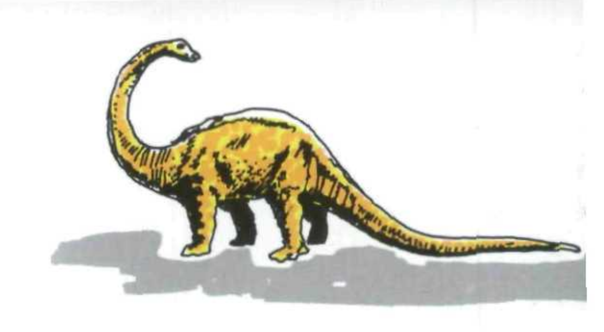
٣ ـ معرفة نوعية ودرجة التأثيرات الممكنة ومقدار التكيف المطلوب كرد فعل اولا، ثم كتصرف منتظم ثانيا، وكل ذلك بدون سابق تجربة أو خبرة أو دراية.

ولا نعتقد بأن هذه الأمور بالشيء الميسور لأي كائن حي، كائن ما كان. فما من كائن مهما كان حيوانا أو نباتاً أو طيراً، يمتلك تلك القدرات التي ذكرناها. وبالقطع فإن أي كائن لن يتمكن من امتلاكها ابدا ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون**﴾ (النمل ٦٥)، ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو...**﴾ (الانعام ٥٩).

وليس لأي نفس، أيا كانت، القدرة على معرفة ماذا ستكسب في الغد، كما أنها لا تعرف بأي أرض تموت ولا الكيفية التي ستموت بها ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير**﴾ (لقمان ٣٤).

ان فناء وانقراض انواع وأجناس شتى، من حيوان وطير ونبات، على مر العصور والأزمنة كان باذن الله، كتابا مؤجلا. كما أن بقاء انواع وأصناف أخرى عديدة واستحداث أنواع وأصناف جديدة، لم تكن قد عاشت في غابر العصور والأزمنة، قد حدث كذلك بارادة الله، لأن الله اراد لها البقاء. ولم يكن أي من هذين الحدثين (الفناء والبقاء) ليحدث برغبة المخلوق أو تبعا لارادته ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا**﴾ (آل عمران ١٤٥).

إن الله اذا اراد شيئا فإنه يقول له كن فيكون. وهو لذلك يسخر الأسباب ويتدخل في قوانين الطبيعة متحكما فيها كيف يشاء. واليك مثالا على ذلك. عندما خرج النبي موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر وتبعهم فرعون وجنوده، ولما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: انا لمدركون. وهذا يعني ضمنيا انهم هالكون، اذا ما ادركهم فرعون وجنوده



أي بمعنى انهم سينقرضون، اذا ما حدث ذلك، نظرا لتغيير الظروف البيئية المحيطة بهم في الوسط الذي عاشوا فيه قبل حادثة خروجهم من مصر. ولكن موسى، عليه السلام، بقوة الايمان بربه كان جوابه: «**كلا ان معي ربي سيهدين**». وهذا يعني ضمنيا ان هدى الله هو الذي سيمكنه من البقاء ويحافظ عليه من الفناء، ولم يحاول موسى التكيف مع الظروف المستجدة اعتمادا على ذاته أو إمكانية التكيف لديه. وبالفعل حدث ما تنبأ به موسى، فأوحى اليه ربه أن اضرب بعصاك البحر. والوحي هنا كان لارشاده بالكيفية التي يمكنه ان يتصرف بها وقت ان كان مهددا بالفناء المحقق. وانفلق البحر، وكان كل فرق كالطود العظيم. لقد توقف فعل الطبيعة وحبست قوانينها، بارادة الله، لتحقيق ارادة الله في نجاة بني اسرائيل، وبقي النوع أو الصنف لأن الله اراد لهم البقاء ﴿**فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون. قال كلا ان معي ربي سيهدين. فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**﴾ (الشعراء ٦٠ــ٦٣).

إن ما اكتشف من بقايا حيوانات ونباتات وطيور، وحتى من حضارات سادت ثم بادت، لهو دليل علمي ومادي شاهد على أن تلك الأحياء والحضارات كانت موجودة وعمرت الأرض في حقبة (او حقب) زمنية غابرة، ثم بادت بعد ذلك ولم تترك إلا آثاراً تدل عليها. ولسنا بصدد الاجابة على سؤال وهمي قد يتبادر الى ذهن القارىء عن كيفية انقراض تلك الاحياء واندثار تلك الحضارات، بل ان هذه المقالة تحاول أن تجيب على سؤال آخر، ألا وهو: لماذا انقرضت الأحياء وبادت تلك الحضارات؟

وهنا لا بد لنا من أن نقرر ان انقراض وفناء ما كان سائدا وما هو سائد أو سيسود مستقبلا لم يكن ولن يكون بسبب خطأ في خلقته أو نتيجة لقصور ذاتي فيه، وانعدام امكانية التكيف لديه مع المستجدات التي احدثتها او تحدثها تغييرات الظروف البيئية للوسط الذي عاش أو يعيش فيه. ان فناء من فني كان نتيجة حتمية لعدم صلاحيته، أي بمعنى ان من باد لم يكن هو الاصلح للبقاء ووراثة الأرض ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ (الأنبياء ١٠٥). وعدم صلاحية المخلوق للبقاء لوراثة الأرض لا ينبغي ان نبحث عنها في مدى او في امكانية تكيف خلقته لما يحيط بها أو يطرأ على محيطها من تغييرات بيئية.

فالله سبحانه وتعالى قد احسن كل شيء خلقه. ولهذا يجب أن ننظر الى هذه الصلاحية من زاوية حسن طاعة المخلوق، أيا كان، لخالقه. فما من أمة هلكت لخطأ في خلقتها بل عندما ساءت تصرفاتها تجاه خالقها ولم تعبده حق عبادته ﴿**وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون**﴾ (الذاريات ٥٦). والعبادة في محتواها الشمولي هي الالتزام بما امر الله به والابتعاد عما نهى عنه في كل تصرف مهما صغر أو كبر، حتى تستقيم الحياة وتتحقق عمارة الأرض بالاصلح. وكل ما خلق الله هي أمم أمثال بني البشر. وما ينطبق على أمة البشر له نظيره الذي ينطبق على الأمم الأخرى، ولكن بالطريقة وبالكيفية التي تلائمها وتتمشى مع طبيعة وظيفتها التي خلقت من أجلها ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين**﴾ (الأنعام ٦). ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا اشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض انه كان عليما قديرا. ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا**﴾ (فاطر ٤٤ــ٤٥) ﴿**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة واثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق**﴾ (غافر ٢١).

علينا إذن، إذا أردنا معرفة الكيفية التي نفقت بها الأنواع والأجناس المختلفة من أحياء شتى على مر الحقب التاريخية، أن نبحث عن الأدلة والشواهد التي تندرج تحت صلاحية تلك الأنواع والأجناس للبقاء وعمارة الأرض من حيث حسن طاعتها لخالقها.

ولا شك في أن هذا المجال من البحث والتقصي يتطلب الايمان الصادق والثقة بالنفس ومواصلة الجهد ومواجهة الصعاب بعزيمة قوية ونفس طويل لا ييأس. ولكنه بدون أدنى شك سيؤدي الى اكتشاف الكثير من عجائب الخلق ومعجزات الخالق□



الدائرة أعلى سطح الأرض توضح مكان المسارع النووي، وباقي الشبكات للخدمات والبحوث، والجزء الظاهر الى يسار الصورة يوضح الجزء المغمور بين حبات الثرى.

تحت الارض

يبحثون عن وحدة الكون

بقلم: د. محمّد نبهَان سويام / القـاهرة

تروي الأساطير الاغريقية أن تمثالا على هيئة أبي الهول، له رأس إنسان وجسد أسد كان قابعا على قمة أحد الجبال القريبة من مدينة طيبة، وكان يسأل الناس عن تفسير بعض الألغاز والأحاجي، فإن لم يستطيعوا التوصل الى الجواب الصحيح، أمسك بزمام رقابهم ضاغطا عليها حتى يزهق أرواحهم وينقلهم من الأرض الى السماء، ورغم غرابة الأسطورة، شأن كل الأساطير القديمة، فإن الألغاز التي ترددت على ألسنة الناس كانت غاية في البساطة وتبدو الآن مضحكة حتى عند الأطفال، فلا يتطلب حلها ذكاء أو حنكة.

واليوم وبدون ان يكون هناك وحش كاسر يتجسد، أو تمثال مسحور يترصد أو شيء من هذا أو ذاك، نلمس وحشا نوعه فريد قد سكن عقول العلماء، لا يرتوي من المعرفة أبدا. وله اصرار عجيب على كشف أسرار الكون وسبر أغواره وتقليب وفحص محتوى الذرة حتى أدق دقائقها ثم الانطلاق صوب ما هو اعظم من كواكب ومجرات وأكوان. وقد جسد لهم اللغز وترك العلماء يدبرون أمورهم ويصححون تجاربهم. فإذا بهم حيال رغبة جامحة في توليد طاقة حرارية ترفع درجة حرارة المادة الى درجة لا تقل بحال عن درجة حرارة قلب الشمس. وأين؟ في باطن الأرض.

ولا يتبادر للذهن أن علماء اليوم يعيدون تجربة ارخميدس وحرق الاسطول الروماني بتركيز أشعة الشمس. انها تجربة أشد تعقيدا لدرجة لا يمكن معها المقارنة، اذ أن الفكرة التي يسعون خلفها تختلف تماما عن فكرة ارخميدس، وفكرة الحاضر، عمادها ان الله سبحانه وتعالى خلق الأكوان متكاملة لتصبح وحدة واحدة، وما تكامل البيئات والأحياء، والجماد والنبات والحيوان مع الماء والمحيطات والجبال والرياح إلا برهان على وحدانية الخلق والخالق ووحدة الكون بدءا من أدق دقائقه وحتى أعظم وأضخم معطياته ومكوناته، لهذا يدرسون نظرية ينطوي تحتها كل شيء وأي شيء.. بمعنى نظرية جامعة مانعة يندرج تحت لوائها كل شيء بدءا من الذرة وحتى الكون الممتد الى ما لا حدود أو قيود.

هناك في جنوب غرب سويسرا وعلى مقربة شديدة من حدودها الدولية وتحت القرى والمزارع،سيان منها الفرنسية او السويسرية، يرقد تحت باطن الأرض واحد من احد عشر نفقا تحت اراضي الولايات المتحدة واوربا واليابان وروسيا، وهي انفاق غريبة، لا تربط الدول، أو تسهل المواصلات والانتقال بينها، ولا تسمح لاحد مثلي أو مثلك بالتجول داخلها أو ولوج أبوابها، فهي أنفاق مقصورة على العلماء، تم اعداد مساراتها وحفر قنواتها وتركيب أنابيبها وفق تقنية معقدة وتحت شروط، ومواصفات قاسية، ففي داخلها تصل درجة الحرارة قرابة ٧٠٠ تريليون درجة، وهي حرارة لا قبل لأحد بها، ويحار الانسان في كنه هذه الطاقة الجبارة متسائلا: من أين جاءت؟ وكيف تولدت؟ ولماذا.. وكيف بنوا هذه الأنفاق من الحديد الصلب؟ وعلى الرغم من هذه الحرارة الجبارة فإن الأنابيب لا تنصهر أو يتسرب ما بداخلها الى خارجها.. الى غير ذلك من الاسئلة المنطقية والملحة.

وقلب هذا النفق عبارة عن انبوب صلب ضخم تحيط به مجموعة مغناطيسات قوية، ومن حولها وحدات تبريد جبارة، وشبكة كهرباء، وجبل من أجهزة الرصد والقياس والتحكم. وهذه الكومة العلمية أو الجبل العلمي تحت الأرض هي ما عرف باسم «المسارعات النووية». وداخل الأنابيب يطلقون الوحدات البنائية للذرات ويجعلون المغناطيسيات تلهبها، فتزداد سرعتها، وتظل تتزايد. ومع تزايد وقع المغناطيسيات تتزايد السرعة وكأن هذه المسارعات تعيد للأذهان حكاية لعبة المقلاع حيث يضع اللاعب حجرا صغيرا داخل كيس قماش صغير مربوط من طرفيه بحبل دقيق ويظل يديره في الهواء دورات متعددة، يكتسب الحجر خلالها طاقة دوران عالية، بعدها يفلت احد طرفي الحبل، فينطلق الحجر في الهواء وكأنه صاروخ جبار قاطعا مسافة كبيرة. وداخل المسارعات تدار الجسيمات النووية الى ان تصل سرعتها الى ما يقارب سرعة الضوء ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية وهي طاقة تكسب الجسيمات قدر طاقتها الأولى لحظة الخلق الأول. لهذا تتفكك الى الجسيمات الأقل والأدنى.. كيف؟

ويمكن مقارنة هذا الموضوع بنزع مسمار من مكانه، فعند نزع المسمار يتطلب بذل طاقة تساوي الطاقة نفسها التي بذلها النجار عندما دق المسمار في موضعه، ودون بذل هذا القدر لن ينزع المسمار من مكانه ابدا. ويعتبر العلماء المسارع النووي بأنه بمثابة مجهر يفحص الأكوان الداخلية للذرات والجسيمات النووية ويكشف خفاياها وينزع مكوناتها، ويظهر كيف ترابطت هذه الجسيمات الدقيقة والكهارب المتدنية الصغر، وخلقت هذا الكيان الذري المعقد ايما تعقيد.. فإن كشفت اسرار الذرة كشفت اسرار الكون. فالذرة في رأي العلماء هي حجر رشيد الكون كله، من فك شفرتها ووقف على كنه اسرارها، تفتحت أمامه كنوز المعرفة وفتحت له أبواب خزائنها الموصدة.

والواقع أن فك أسرار شفرة التركيب الذري قد بدأ منذ حوالي قرن كامل يوم درس العلماء نتائج تجربة بسيطة حدثت مصادفة، فعرف العلماء الالكترونات كأحد

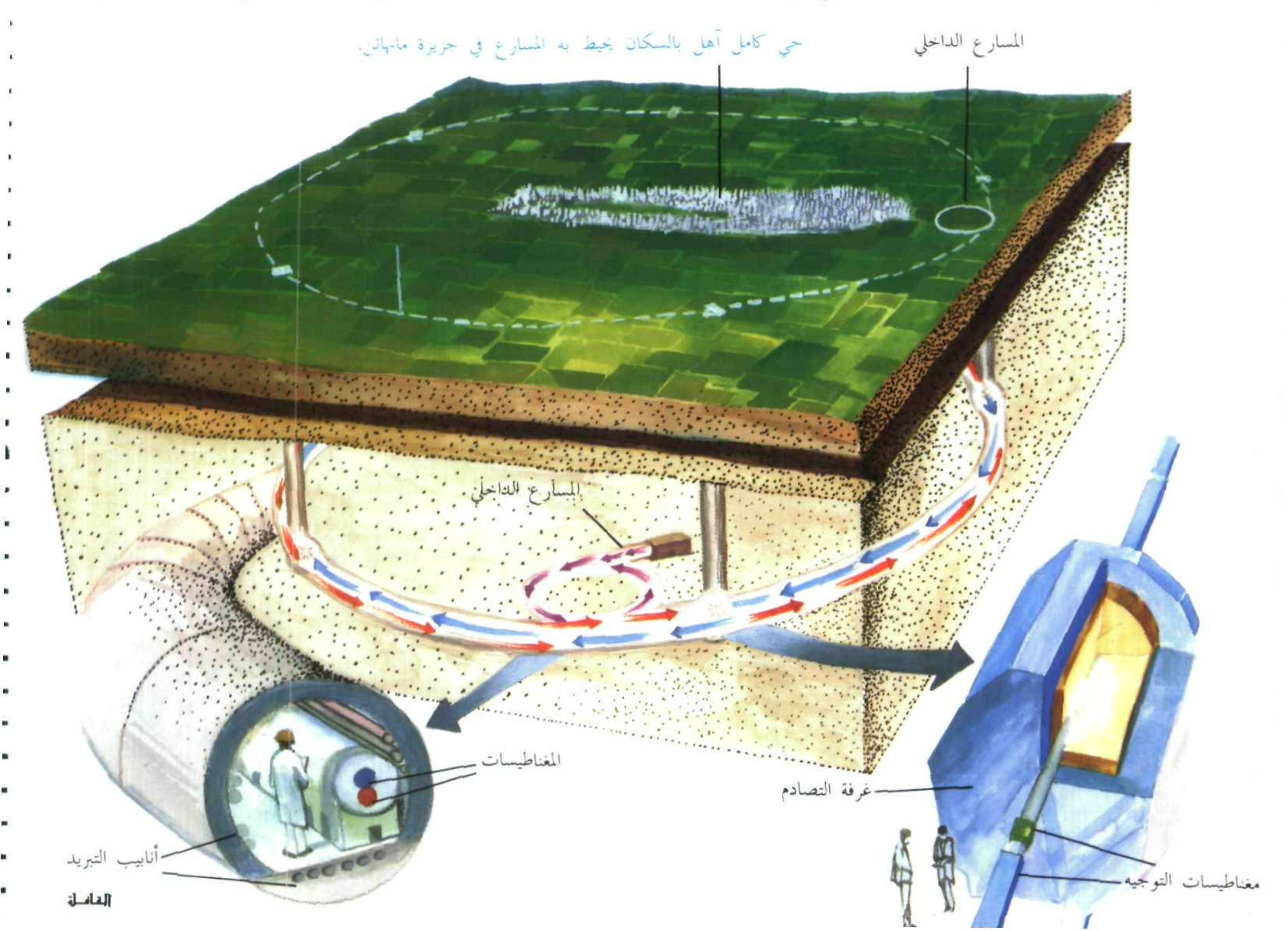
المكونات الذرية الأساسية على الرغم من أن الالكترون الواحد لا يزيد وزنه عن واحد على واحد أمامه تسعة وعشرون صفرا من الجرام، ويقع على مسافة ٥٠٠٠٠ ضعف قطر نواة الذرة ذاتها، فاذا فرض — جدلا — ان نواة الذرة في حجم كرة التنس، فإن الالكترون يقع على بعد ٣ ١/٢ كيلومترات، وهي مسافة فارغة تماما، لذلك قام العالم النيوزلندي «ايرنست روزفورد» سنة ١٩١١م بقذف شريحة ذهبية رفيعة بنوى ذرات عنصر الايدروجين فلم يرتد سوى جسيم واحد من كل ثمانية آلاف جسيم مما أكد للعلماء فراغية كيان الذرة، أي هي فراغ من فراغ من فراغ، وتدور الالكترونات حول النواة مثلما تدور الكواكب حول الشمس. وقد احدثت هذه الاكتشافات ثورة علمية وفلسفة عارمة وقدمت للعالم اكتشافات وابتكارات مذهلة.

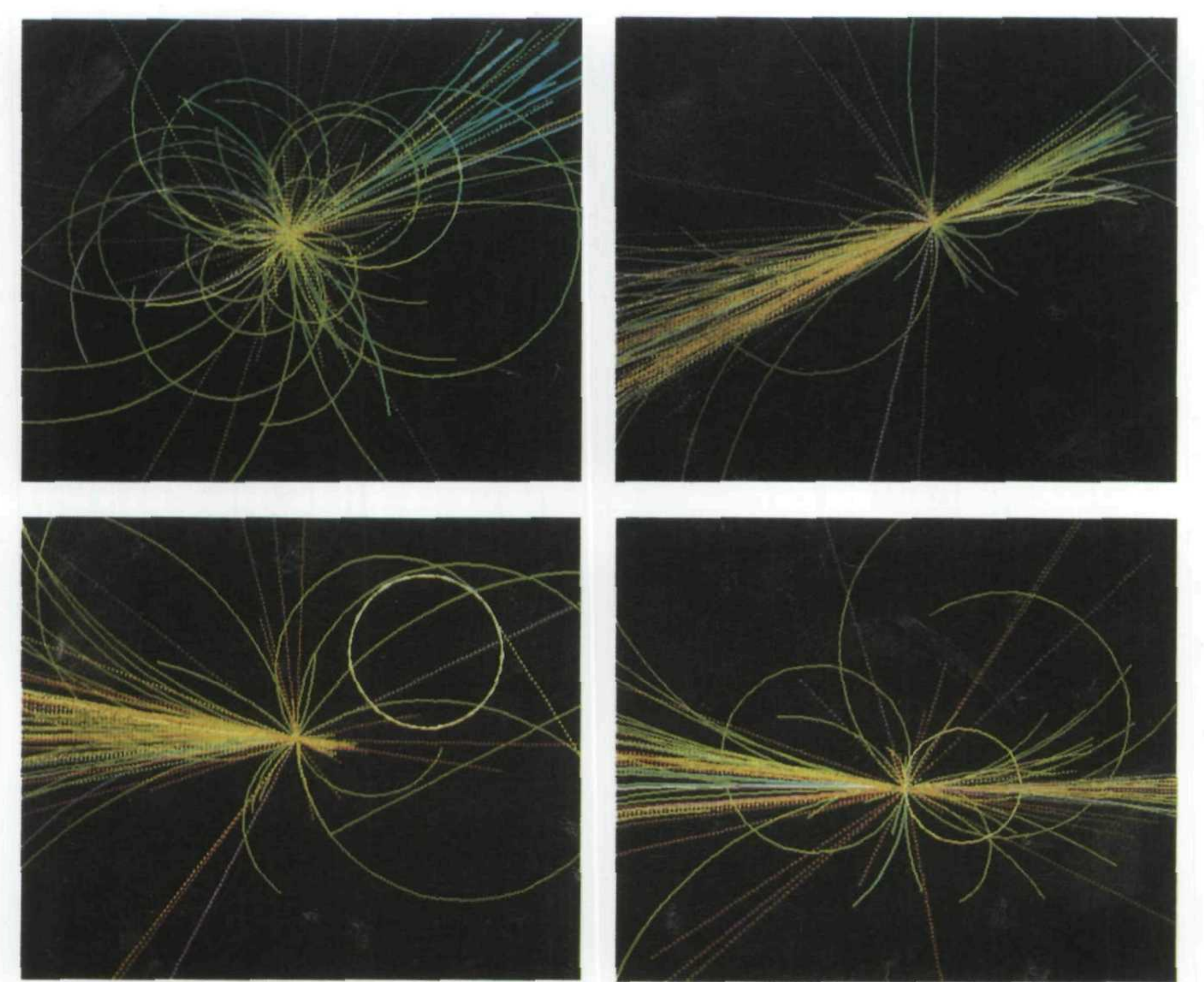
وهذا التقدم المذهل في الاتجاه المباشر قد أوجد رد فعل قويا لدى العلماء لمعرفة أصل الأشياء سيان كانت هذه الأشياء أرضا أو نجما أو كوكبا أو إنسانا أو ذهبا أو ترابا، فالكل من واحد وهو في الاصل طاقة، فيما عبر عنه العالم «البرت اينشتاين» بمعادلته الشهيرة التي تربط بين الطاقة والكتلة، وأن كلاهما وجهان لعملة واحدة، فإذا كانت الطاقة تأثيرا لا نراه رأي عين وإنما ندركه ونستشعر أثره في الحركة والانتقال والعمل ودورات الآلات، فإنها تنطلق على هيئة موجات داخل إطار الكون، وتجري داخله بسرعة الضوء، فإن تخلت الطاقة عن حالتها الموجية تجسدت على هيئة مادة.. ذات كيان ملموس، وذات أبعاد يمكن قياسها والتعرف اليها.

ولبحث هذه الاعتبارات، تنطلق الجسيمات النووية داخل المسارع النووي السويسري وتعبر حدود فرنسا ٤٣٠٠٠ مرة كل ثانية دون قيود حيث تنطلق بسرعة ٢٩٧٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وتظل تدور بحيث تتولى المغناطيسيات تصحيح مسار الجسيمات النووية وتبعدها عن جدران الأنابيب وتتسارع بها أسرع وأسرع قبل أن ترتطم بتلك الجسيمات القادمة من الاتجاهات المضادة فيحدث انفجار حيث تدمر الجسيمات بعضها البعض وتنطلق الطاقة.

وما دمنا ذكرنا الجسيم النقيض، فما هو؟

انه الصورة المعكوسة للبروتون، فإذا كان البروتون يحمل شحنة كهربية موجبة فإن نقيضه يحمل شحنة سالبة كما

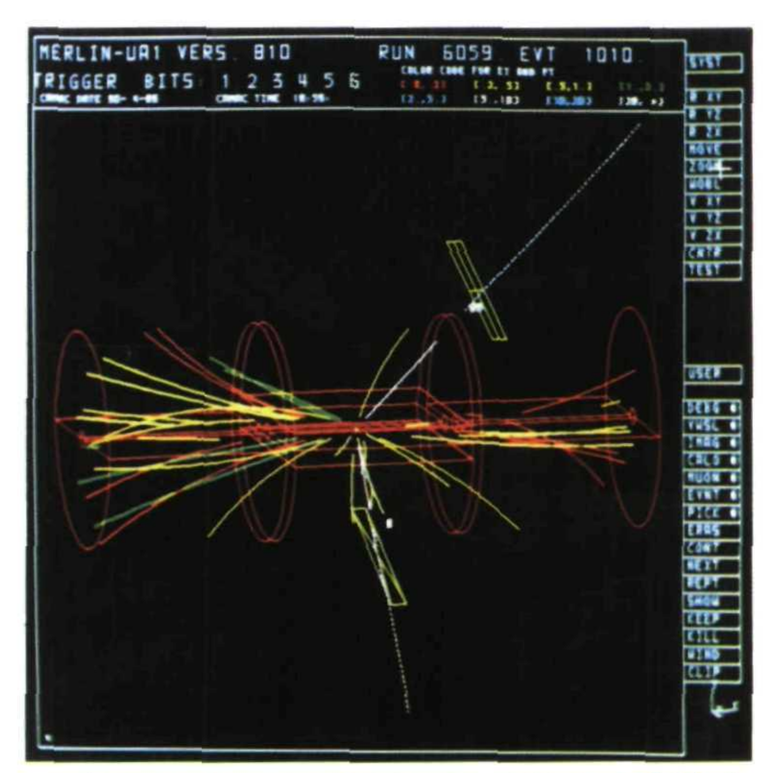




عندما يصطدم الجسيم النقيض داخل غرفة السائل تلتقط العدسات فقاقيع الغازات ومساراتها موضحة مسارات الجسيمات المتولدة، فيما توضحه الأشكال الأربعة.

يساوي وزنه تماما. وينجم عن هذا التصادم طاقة هائلة. فإن تجسدت الطاقة ولدت جسيمات ذرية أخرى تنطلق بسرعة في جميع الاتجاهات، وتتكون جسيمات ذرية أدق،ذات عمر قصير لا يتعدى واحدا على تريليون من تريليون من الثانية، وكلها نادرة الوجود في هذا الكون، ويستحيل التعامل معها إلا تحت ظروف علمية خاصة، لذلك يضم كل مسارع نووي محطة تصادم خاصة مملوءة بالماء أو الغازات السائلة، تتسلط عليها آلاف العدسات والمجسمات الالكترونية ووسائل الرصد والتحكم وعشرات الحاسبات الالكترونية العملاقة تعمل على ضبط ومراقبة اداء المغناطيسات وتدفق ماء التبريد.

ولقد بدأت المسارعات النووية بداية متواضعة، عندما قام ارنست د. لورنس في سنة ١٩٣٠م بتجربة علمية رائدة مستخدما مسارعا لم يتعد قطره عشرة سنتيمترات، ولم يمض على تلك التجربة نصف قرن حين تضخمت المسارعات وتطورت وأصبحت أضخم المعامل. وبلغ محيط المسارع الروسي ١٩,٣ كيلومترا ويجري حاليا إنشاء مسارع سويسري يبلغ محيطه ٢٧ كيلومترا، كما يجري في الولايات المتحدة أيضا اقامة مسارع جديد يبلغ قطره ١٦٤ كيلومترا، وبداخله ٨٠٠٠ مغناطيس طول الواحد منها ١٥ مترا، وتحيط بكل وحدة ١٥٠٠٠ متر مربع من شرائط الصلب، ٢½ مليون متر مربع من أغطية وشرائح معدن الالمنيوم، الى جانب ٥٠ مليون متر من الاسلاك والكوابل. كل هذا الى جانب ألف حاسب الكتروني صغير ومائة حاسب الكتروني متوسط منها أربع حاسبات فائقة السرعة تراقب انطلاق الجسيمات والسيطرة على مسارها بحيث لن يزيد انحرافها عن ١/٤ سنتيمتر عن المسار المقدر لها، وتتم دراسة انطلاق الجسيمات الجديدة داخل غرفة خاصة مملوءة بالماء أو الغازات السائلة عند حرارة تصل الى ٢٤٣ درجة مئوية تحت الصفر. وتعبر الكتل الجديدة السائل فتصطدم



استعادة الصور على شاشات عرض خاصة مجهزة خصيصا لدراسة هذا التوجه.

وتولد الجسيمات.. وحول هذه الجسيمات نقاط تكشف مسارها ومواقعها، ويتم تسجيل ذلك كله الكترونيا على وسائط تخزين الحاسبات الالكترونية ومنها ما يعرض على شاشات خاصة بحيث تظهر الجسيمات وهي تتلاحم وتتلاشى ويلتهم كل منها الآخر وتظهر ومضات الضوء.. ومضات الطاقة وآثار الدقائق المتولدة.

وجعبة العلم لا تخلو من غرائب..

وفي سنة ١٩٦٣، اثبتت دراسات أجريت على الأشعة الكونية ودراسات أخرى تمت داخل المسارعات النووية، أن جسيم النيترون وجسيم البروتون كلاهما ينتمي الى عائلة واحدة وان لكل واحد منهما خاصية فريدة ناجمة عن مستوى أعماق البنية ــ Quorks. وتخيل العلماء وجود نوعين منها، احدهما ذو طبقة عليا والآخر ذو طبقة سفلى. والآن يعتقد العلماء أنه بعد الانفجار الأعظم تلاشت المادة مع نقيضها وتولد قدر هائل من الطاقة والاشعاعات واستقر بعض المادة على هيئة غبار كوني ومنه نشأت الكواكب والمجرات ثم الانسان نفسه فيما يعني توحد القوى الاساسية في الكون، وهي أربع قوى تضم القوة النووية الضعيفة والقوة النووية القوية والقوة الكهرومغناطيسية مع وجود علاقة قوية جدا بين هذه القوى الأربع ضمن إطار شامل موحد، ثم انفصلت الجاذبية الأرضية على شكل قوة مستقلة.

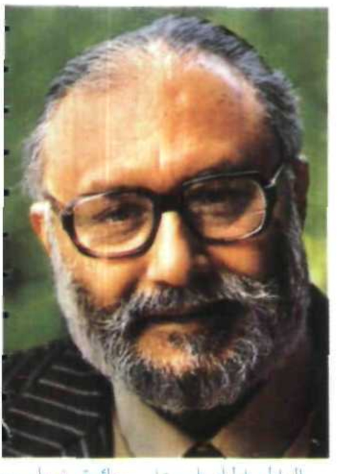
والواقع أن هناك سوابق في عالم الفيزياء لمثل هذا التوحد، ففي القرن التاسع عشر قام العالم الفيزيائي «جيمس ماكسويل» بتوحيد الطاقة الكهربية والأخرى المغناطيسية في الطاقة الكهرومغناطيسية، كذلك تم في الستينات الكشف عن علاقة وثيقة بين القوة الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية.

وما دام هناك جسيم وجسيم نقيض..

فلماذا لا تكون هناك ذرات.. وذرات نقيضه.. وجزيئات.. وجزيئات نقيضه.. وشموس ومجرات ونقيضاتها..

وما دام أمر الأصل والنقيض قائما.. اذا.. كيف تكونت الأرض والكواكب والمجرات ولم يلتهم الكون نقيضه وأفنى كل شيء؟

ضمن إطار هذا السؤال الضخم الشائك تأتي نظرية التوحد الكبرى ساعية الى اقتفاء أثر التاريخ والعودة بالزمن الى الوراء، ومحاولة تفسير تكون الكون منذ ١٥ بليون سنة خلال الانفجار العظيم، حيث لا زال الكون ينمو بما يعادل حجم مجرة التبانة ــ Milk Way كل ثانية.. ولا زال وسيظل السؤال بلا جواب.. مما سيتطلب الرد عليه، إنشاء مسارعات أضخم وأضخم على حد رأي العالم الباكستاني الدكتور محمد عبدالسلام (الفائز بجائزة نوبل في الفيزياء)، والعالم الايراني الدكتور محمد المحمدي، والدكتور كارل روبيا وآخرون كثيرون ما زالوا ينتظرون قيام المسارع الذري الامريكي الجديد عله يحسم أمر هذا اللغز العويص.


العالم الحاصل على جائزة نوبل، الباكستاني الدكتور محمد عبدالسلام،صاحب مدرسة عالمية في المسارعات النووية.

وهل لمثل هذه الدراسات عائدات أخرى؟

قطعا.. في المجالات العسكرية لها فوائد قل أن يحصى عددها، وفي المجال الطبي ثبت إمكان علاج خلايا السرطان ببعض ابتكارات هذه الدراسات، كما أن ما ابتكر من مواد جديدة وتقنية حديثة لن يقل أثرا في عالمنا عما أحدثته تقنية الفضاء والطيران.

وبعد لم تعد الاسطورة اسطورة، فالوحش الكاسر كمن في أعماق العلماء بفضل معادلة رياضية صاغها اينشتاين واتبعها العلماء وحولوها الى لغز الألغاز.. وسبحان القائل: **﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾** □

في مسيرة الحياة

للشيخ أبي الحسن الندوي

بقلم: د. مأمون فريز جرار / جامعة الملك سعود بالرياض

كثير هم الذين تدفعهم أرحام النساء كل يوم، وكثير هم الذين تبتلع جثثهم القبور كل يوم. ولكن من هذا الكثير قليل من الاشخاص يحفرون أسماءهم في سجل التاريخ، وتبقى أعمالهم رموزا ومعالم تلتفت اليها الأعين والقلوب.

وكم يتمنى المرء عندما يحب انسانا أن يقف على تفصيلات حياته، ويستعيد مراحل عمره منذ طفولته حتى صار علما من الاعلام الذين تعيهم ذاكرة الأجيال.

واذا كان كتّاب السير قد كلفوا باشباع هذه الرغبة، فإن عملهم — على كبير فائدته — تشوبه كثير من الثغرات التي لا يملك الحديث عنها الا صاحبها. ومن هنا كانت المتعة الحقيقية في قراءة التراجم الذاتية، هذه المتعة التي يحققها التواصل بين القارىء والكاتب، الذي — إن أحسن الكتابة — يكون كالدليل.. يجوس به في مسارب حياته.

صحيح أن الترجمة الذاتية لا تخلو من آفات تصيبها، من تحيز الى الذات يتمثل في الانتقاء، أو في إخفاء بعض الحقائق، ولكنها على علاتها، تبقى ممتعة وذات نكهة خاصة لا نجدها في السيرة.

لقد شاع في عصرنا فن الترجمة الذاتية، وتنوعت اتجاهاته، فكان من ترجم لنفسه ساسة وادباء، ودعاة ورجال أعلام وفنانون، ولكلٍ راغب ومحب.

والترجمة التي بين يدي هي لعلم من أعلام الفكر والدعوة في عصرنا الحديث، وعنوانها «في مسيرة الحياة». وقد صدر هذا الكتاب عن دار القلم بدمشق في طبعته الأولى سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. وعدد صفحاته — من غير الفهارس — ٤٢٩ صفحة وفصوله اثنان وثلاثون، يتصدرها تقديمان: الأول للشيخ علي الطنطاوي، والآخر للكاتب نفسه. وقد قسمت الفصول وفق المراحل الزمنية المتعاقبة، ويدور كل فصل حول مرحلة متميزة، أو منعطفات مهمة في حياة المؤلف.

مؤلف الكتاب هو: ابو الحسن علي الحسني الندوي ولد في السادس من محرم سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م في لكنو، لأم وأب ينتميان الى الامام الحسن بن علي رضي الله عنهما. ووالده العلامة السيد عبدالحي الحسني الذي يعد مؤرخ الحضارة الاسلامية في الهند، ومن مؤلفاته: «نزهة الخواطر» في ثمانية أجزاء كبار، احتوت على أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ترجمة، و «الهند في العهد الاسلامي»، و«الثقافة الاسلامية في الهند».

وأمه من الأسرة نفسها، وقد كانت — كما وصفها المؤلف — من السيدات الفاضلات، ولها مؤلفات، وشعر، وقد حفظت القرآن الكريم، وكانت من العابدات.

يستوقفنا في مقدمة المؤلف حديثه عن الصراع الذي نشأ في نفسه عندما فكر في كتابة ترجمة حياته، تلبية لإلحاح عدد من محبيه وتلامذته. وقد فصل أسباب هذا التردد، ثم بين ما رجح لديه الكتابة[1]. ونلمح من أسباب التردد:

* التواضع: وهو لا يقول هذا بالنص، ولكننا نلمحه في قوله وهو يستعرض مسوغات الكتابة عن الذات: «لم أكن يوما سياسيا بارزا، ولا قائدا محنكا، ولا صاحب شهرة وجاه عريض، أو تربية وإرشاد، ولا نابغة من

(١) يذكرنا هذا التردد بما ورد في مقدمة سيرة احمد أمين «حياتي».

نوابغ العلم والفن، لم يكن شيء من ذلك حتى يسوغ لي التأليف عن نفسي»[٢]. وفي هذا القول تواضع ونكران للذات، وإلا فهو من المربين الذين يشهد له تلاميذه بذلك، ومن المؤلفين الذين سارت مؤلفاتهم في لغات عديدة، ومن الدعاة الذين يحملون هم المسلمين في كل مكان. وكتابه «في مسيرة الحياة» شاهد على هذا كله.

* حساسية الكتابة في الترجمة الذاتية، لأن الكاتب مضطر الى الحديث عن معاصريه وزملائه. ومن وجوه الحساسية انه «يخشى في كل موضع من المواضع الزلات والهفوات، وخداع النفس والغرور بالذات، كما يخاف فيها الاساءة الى الأصدقاء والزملاء وتجريح شعورهم بعدم توفيتهم حقوقهم، أو من المغالاة في تقريظهم والمبالغة في الثناء عليهم.»[٣].

وإذا كان هذان العاملان قد ثبطاه عن الكتابة حينا من الدهر، فإن عوامل أخرى قد جعلته يكسر قيد الاحجام، ويشرع في الكتابة، وهو في كتابه هذا ــ كغيره من الكتب ــ لا ينسى انه داعية الى الله، وموضوع الدعوة في هذا الكتاب: حياته وما فيها من الدروس والعبر. ومن هذه العوامل التي دعته الى الكتابة:

- إظهار آيات الله التي تجلت في حياته: يقول «باستعادة ذكريات حياتي واحداثها، والتأمل في صنع الله تعالى بعبده الضعيف، اتذكر قول الله تعالى، فأرى تفسيره في حياتي، وهو قوله تعالى ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد**﴾[٤]. ويخص من هذه الآيات التي شهدها: «تأثير دعاء الوالدين، وفوائد تعليم المعلمين المخلصين العطوفين الحريصين على تربية تلاميذهم، واحتضان عباد الله الصالحين، ودعواتهم المجابة... ورأيت بأم عيني نتائج اختيار الغايات الصالحة، وأهداف الحياة الصحيحة»[٥].
- أشار المؤلف الى أن من مميزات الترجمة الذاتية انها تتيح للكاتب أن يقول في إيجاز، من خلال سرد وقائع حياته ما لا يمكن قوله إلا في مؤلفات عديدة، لو اراد الحديث عنه حديثا مستقلا[٦].
- والدافع الثالث الى الكتابة هو أنه من خلال قصة عمره يستطيع أن يعطي القارىء موجزا عن مسيرته التأليفية، وآرائه وأفكاره، ومنهجه الذي لا يمكن الاحاطة به الا بالاطلاع على كتبه ومحاضراته ومقالاته. وهذا ما لا يتيسر لكثير من القراء، هذا اذا عرفنا ان مؤلفاته بلغت أكثر من خمسة وسبعين، في لغات عديدة[٧].

ولئن كانت غاية من يكتب ترجمة حياته أن يطلع على مسيرة تلك الحياة في جوانبها المختلفة: البيئة التي نشأ فيها، وعوامل التكوين النفسي والعقلي، والروحي، ثم مراحل هذه الحياة، وثمرات كل مرحلة، نشاطا وتأليفا وتأثيرا في البيئة العامة، لئن كانت تلك غاية من يترجم لحياته، فإنها تحققت في كتاب ابي الحسن هذا.

ولن اتحدث عن فصول الكتاب، وما احتوته، ومن اراد معرفة ذلك تفصيلا فعليه به، ولكنني سأقف وقفات قصيرة على ابرز الملامح التي تتجلى فيها صورة الكاتب من خلال كتابه. ومن هذه الملامح:

الصراحة:

إن مما يقرِّب كاتب الترجمة الى القارىء ان يحس صدقه وصراحته، وهذا الاحساس يولد في نفسه الثقة بالكاتب، ويجعله يقبل على القراءة في شغف. ومن مظاهر الصراحة حديثه عن طفولته تحت عنوان: الطفولة اليائسة.

يقول: «ولا بأس ان أصرّح هنا بأن طفولتي لم تكن مرجوة تعلق عليها في ظاهر الأمر الآمال الكبار، بل كانت طفولة بائسة لا تبعث الآمال، ولا تبشر بمستقبل زاهر[٨]. ثم يعقب على هذا ببيان ما كان لهذا الظاهر المبئس من تأثير على والدته ومن عاقبته في حياته، يقول: «ولكن ذلك جاء بفائدة عظيمة، فقد افرغت والدتي ما في كنانتها من ادعية وابتهالات لتربيتي وصلاحي وتحصيلي للعلم وقبولي عند الله وعند الناس ونجاحي في جميع الأمور[٩].»

ثم يتبع هذا القول باعتراف هو: «والواقع ــ كما اعتقد ــ ان ما قدر الله لي من الخير وما آتاني من الفضل والزلفى لدى عباد الله الصالحين، وما منحني من عطفهم وأدعيتهم، كل ذلك يرجع الى تلك الادعية المضطرة التي كانت تدعو بها والدتي[١٠].»

الوفاء:

إن من شيم أهل الفضل أن يعرفوا حقوق من لهم عليهم يد، ولا يصوروا أنفسهم وكأنهم نشأوا في فراغ، ولم يكن لأحد عليهم منة، وصفة الوفاء ظاهرة في كثير من صفحات

(٢) ص/١٩ــ٢٠.
(٣) ص/٢٠.
(٤) سورة فصلت ــ آية ٥٣.
(٥) ص/٢١ــ٢٢.
(٦) انظر: ص/٢٥.
(٧) انظر: ص/٢٥.
(٨) ص/٧٤.
(٩) ص/٧٤.
(١٠) ص/٧٤.

الكتاب. فهو وفيّ لوالده يذكره بالخير، ويبين ما كان عليه من العلم والصلاح، ويعتني بطباعة آثاره ونشرها بين الناس. وهو وفيّ لوالدته، يذكرها بالخير، ويبين ما كان لها من الأثر في توجيهه في الحياة، من تحفيظه للقرآن، وتوجيهه في مسيرته العلمية، وتربيته تربية اسلامية. ومن وفائه لها يؤلف فيها كتابا. ونجده كذلك وفيا لأخيه ومربيه الدكتور عبدالعلي الذي أشرف على تربيته بعد وفاة والده وهو في سن التاسعة. وكذلك شأنه مع شيوخه الذين تلقى عنهم العلم والتربية، فهو يذكرهم بخير ويثني عليهم.

تميز الشخصية والاستقلال الفكري:

نلمس هذا التميز في حياة الندوي العلمية والدعوية معا، فقد سعى الى تطوير تدريس اللغة العربية في ندوة العلماء، وألف كتبا جديدة لمقررات اللغة العربية، وبخاصة «مختارات من الأدب العربي».

ونلمس هذا التميز في موقفه من الحركات الاسلامية، فعلى الرغم من اتصاله بالجماعة الاسلامية برئاسة المودودي، وجماعة التبليغ وشيخها الداعية محمد الياس، فإنه لم يفقد تميزه بل اختط لنفسه منهجا في الدعوة يلائم البيئة الهندية.

حب العربية والاهتمام بها:

ولا عجب من هذا الحب، فقد نشأ في بيئة علمية دينية، وقد كان لوالده ولأخيه عبدالعلي أثر كبير في توجيهه الى العربية، ونبوغه فيها كتابة وحديثا، وقد ألف عددا كبيرا من كتبه بالعربية. وقد كنا نأمل أن يكون كتابه «في مسيرة الحياة» في العربية بقلمه، ولكنه كتبه بالاردية وترجمه الى العربية ابن اخيه سلمان الندوي ثم تصفح المؤلف الترجمة وتناولها بشيء من التنقيح والحذف والزيادة.

سعة الثقافة:

ويكفي للدلالة على ذلك انه يعرف الاردية والفارسية والعربية والانجليزية، ولم يقتصر في دراسته على العلوم الشرعية فحسب، بل وسع مدى اطلاعه، وسرد علينا عددا كبيرا من الكتب التي بدأ بدراستها حينما أحس بضرورة توسيع ثقافته، كما اتيحت له منذ وقت مبكر فرصة الاطلاع على عدد كبير من المجلات العربية التي كانت تصدر في النصف الأول من القرن العشرين وكانت تصل الى الهند، كالرسالة والثقافة والمنار والفتح وغيرها.

الزهد في متاع الدنيا:

وهو زهد القادر لا زهد العاجز، فقد أقام شطرا من طفولته في قصر الامير نور الحسن بن صديق حسن خان. ويقول المؤلف في ذلك: «وقد افادتني هذه الاقامة في هذا البيت الذي كان من قصور الأمراء العامرة ان زالت عن عيني غشاوة المهابة للزينات والزخارف، ولم تبهر عيني قط مظاهر الامارة والثراء، فقد شاهدت في هذا القصر أفخم وأفخر ما يمكن من مظاهر الزينة والثراء»[11].

ويتجلى هذا الزهد في بساطة عيشه وملبسه وسلوكه، وبعده عن النزول في الفنادق الفخمة المتاحة له وايثاره بيوت تلاميذه ومحبيه حيثما حل.

٧ ــ النظرة الاسلامية الشاملة:

اذا كان بعض الدعاة المسلمين يقصر اهتمامه على القطر الذي ينتمي اليه، وتشغله هموم المسلمين في بلده، ويصرف عليها كل جهده، فإن أبا الحسن الندوي قد جمع بين الاهتمام بشؤون مسلمي الهند، والاهتمام بالاسلام والمسلمين في كل مكان.

فهو يهتم بما يعانيه المسلمون في الهند من أذى بعض المتعصبين من الهندوس ويحاول بكل وسيلة دفع الأذى عنهم، ويشارك في الاجتماعات الوطنية، وينشيء حركة اسمها «حركة رسالة الانسانية» للمحافظة على الشخصية الاسلامية، ويقابل المسؤولين الهنود، وفي الوقت ذاته لا تنقطع زياراته للبلاد العربية والاسلامية، حاجا وداعية، ومستطلعا أحوال المسلمين. وشملت زياراته الدعوية بعض البلاد غير الاسلامية. وهو عضو مؤسس في رابطة العالم الاسلامي، وعضو المجلس الاستشاري للجامعة الاسلامية في المدينة المنورة، ويشارك في كثير من المؤتمرات العلمية الاسلامية، في الهند وخارجها. ويرأس رابطة الأدب الاسلامي التي أسست عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

إن قارىء هذا الكتاب لا يطّلع على مسيرة شخص واحد في الحياة، بل يطلع على مسيرة أكثر من سبعين عاما من عمر المسلمين في هذا القرن في مختلف بلادهم، ويتزود من التجارب والآراءالتي بثها الكاتب في صفحاته، فلا يملك الا الاعجاب بهذه الشخصية التي حقق الله على يديها كل هذا الخير.. ويحس بجدارته بجائزة الملك فيصل لخدمة الاسلام التي نالها سنة ١٤٠٠هـ.

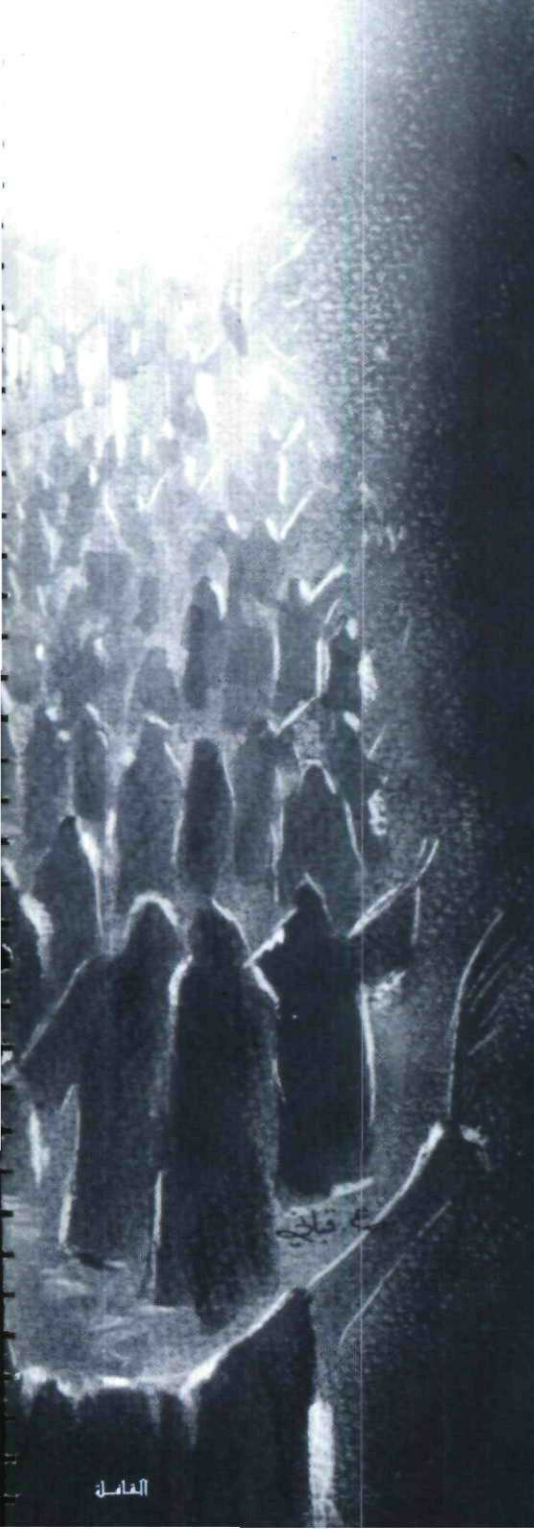
وما زالت مسيرة حياة الشيخ الندوي ممتدة ــ أطال الله عمره ونفع به ــ ولعله يطلع علينا بالجزء الثاني من مسيرة حياته، فقد وقف به قلمه في نهاية سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م□

---

(١١) ص/٧٦.

سطعت ثنيا

شعر: عبد العز



ضاقت قريش بدعوة الإسلام ... وتمسكت بالرفض والإحجام

عميت قلوب القوم عن حسناته ... فاستسلموا للشرك كالأنعام

فتهالكوا امت بطين عنادهم ... أفعى وتنفث سمها بركام

خابت وسائلهم وفل حسامهم ... أضحى الحصار تبدد الأوهام

وازداد نجم المسلمين تألقاً ... ولقوا بيثرب قمة الإكرام

وغدا لواء الدين منتصراً بها ... أمسى غريباً عابد الأصنام

قد أيقن الباغون أن محمّداً ... لابد منتصر على الأقوام

والويل لو ملك اللحاق بصحبه ... آلت تجارتهم إلى الإعدام

عقدوا اللقاء لينظروا بخلاصهم ... وجدوا النجاة بشفرة الصمصام

سموا فتى جلفاً بكل قبيلة ... كي يطلقوا للقتل دون زحام

وبخطة مرسومة خطواتها ... سيضيع ثأر حميّة الأعمام

وسعت لبيت محمّد أحقادهم ... والبطش عدتهم لنيل مرام

نظروا بشق الباب كان محمّد ... متدثراً في عتمة الإظلام

عميت عيون الشرك عند خروجه ... فمضى إلى الصدّيق وسط زحام

سلكا طريقاً موحشاً ليضللا ... قوماً تعاموا عن طريق سلام

في غار ثور حصنوا بسلامة ... أملاً بنجاة وحسن ختام

تسعى لباب الغار جذع شجيرة ... حجبت وعن نظر عيون طغام

نسجت خيوط العنكبوت مكيدة ... كي توقع الفجّار بالإيهام

وحمامة وحشيّة صنعت لها ... عشاً، وتغمره بفيض غرام

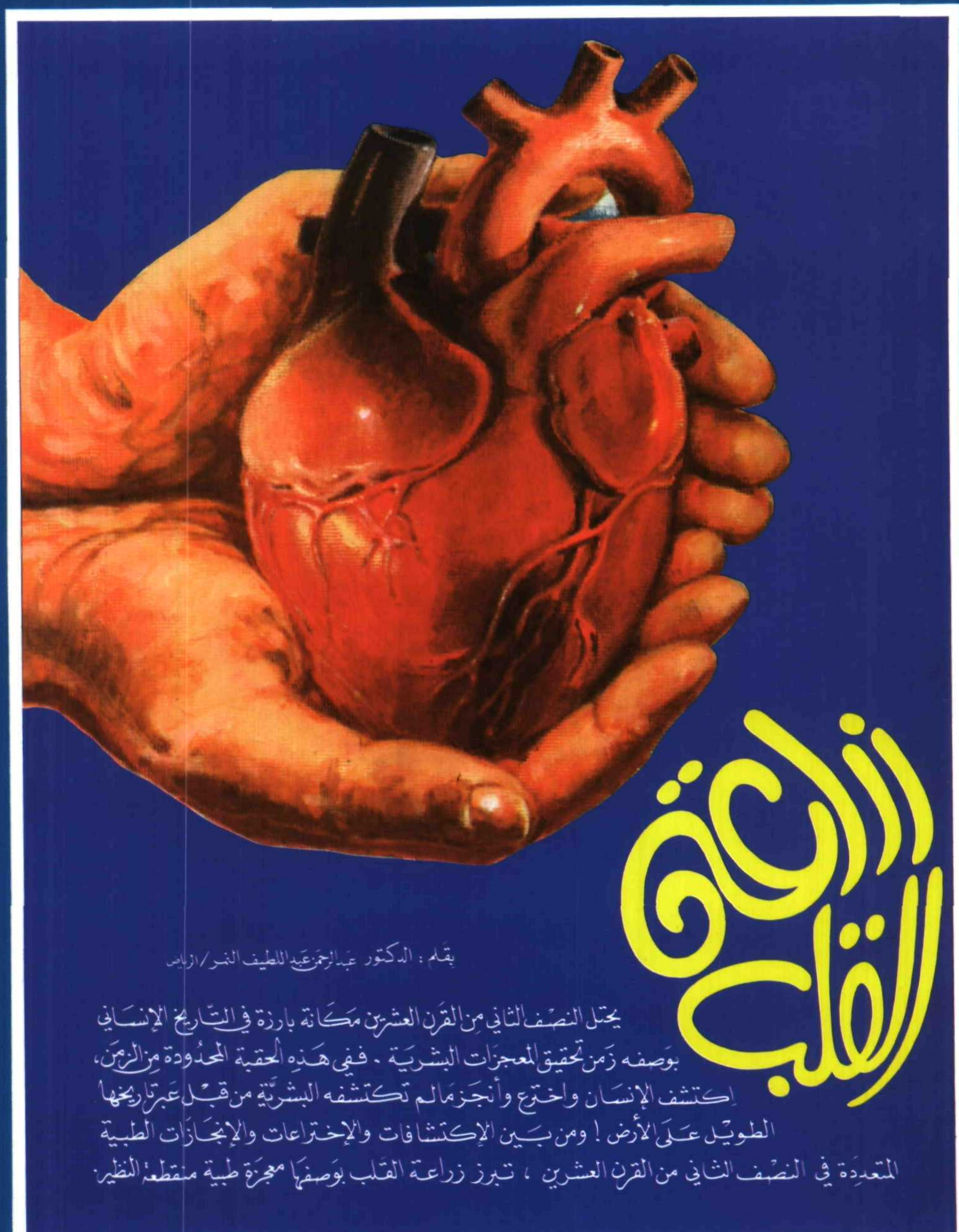
ت الوداع

ية / الرياض

قد ارجعت شيطان مكة قائلاً ... بالعنكبوت تبددت أحلامي
ومضى الرسول مبشراً لصديقه ... لا، لن تعود مرارة الآلام
وإذا أراد الله نصر قضية ... فتقاد بالوسطى وبالإبهام
لا تعبأن بمن يكابر جاحداً ... لا تحزنن لفرقة الأرحام

مكثا ثلاثاً ثم كان مسيرهم ... لما توارى منظر الأقزام
قطعا الفلاة مسيرهم متواصل ... سبعاً من العتمات والأيام
فقدت قريش صوابها لنجاتهم ... فتشبثت بالحقد والآثام
تهب الجوائز كي يرد محمد ... لقبيلة متسربلاً بحمام
لكنها خابت وخاب رجاؤها ... هذا سراقة هام بالآكام
بحثاً وتنقيباً ليغنم ثروة ... فإذا الجواد كحامل متآم
يكبو ويكبو ثم يسقط خائراً ... يتطاير الصمصام مثل حطام
يخطو سراقة خائفاً متهيباً ... متثاقلاً كتثاؤب البرطام
يرضى من الصيد الثمين برقعة ... مكتوبة عقدت عهود سلام

والفرحة الكبرى تكامل رسمها ... لما بدا متطاول الآطام
وزهت "قبا" مختالة برسولها ... وتفاءلت بالخير والإنعام
سطعت "ثنيات الوداع" بنوره ... وتزاحم الأصحاب بالأقدام
واستقبلت أرجاء يثرب قائداً ... قد جاء يشفيهم من الأسقام
قد جاء يقرئهم رسالة ربهم ... ويبين ما استعصى على الأفهام
قد جاء يجمع أمة بلوائه ... قد جاء يرسي دولة الإسلام



زراعة القلب

بقلم : الدكتور عبدالرحمن عبداللطيف النمر / الرياض

يحتل النصف الثاني من القرن العشرين مكانة بارزة في التاريخ الإنساني بوصفه زمن تحقيق المعجزات البشرية . ففي هذه الحقبة المحدودة من الزمن، إكتشف الإنسان واخترع وأنجز ما لم تكتشفه البشرية من قبل عبر تاريخها الطويل على الأرض ! ومن بين الإكتشافات والإختراعات والإنجازات الطبية المتعددة في النصف الثاني من القرن العشرين ، تبرز زراعة القلب بوصفها معجزة طبية منقطعة النظير.

سرد تاريخي

في ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٦٧م، أجريت جراحة زراعة القلب على الانسان بنجاح لأول مرة في التاريخ. فقد أجرى الجراحة «كريستيان برنارد — Christian Bernard» في مدينة الرأس — Cape Town (سميت كذلك بسبب دخولها في البحر (المحيط الاطلنطي) في جنوب افريقيا.

مهد لهذا النجاح عشرات التجارب التي أجريت على الحيوان. ويرجع تاريخ اولى محاولات زراعة القلب في بعض فصائل الحيوان الى عام ١٩٠٥م. وقد استمرت التجارب على الحيوان، خصوصا الكلاب والقردة، الى منتصف الستينات من القرن العشرين، حين حاول طبيب امريكي زراعة قلب قرد من فصيلة «شيمبانزي» مكان قلب انسان، دون نجاح.

وفي يناير (كانون الثاني) عام ١٩٦٨م، أجرى الجراح الامريكي «نورمان شومواي — Norman Shumway» ثاني جراحة تاريخية لزراعة قلب انسان في صدر إنسان آخر. وقد أجريت الجراحة في مدينة «ستانفورد» في الولايات المتحدة. ومثل الجراحة التاريخية الأولى، لاقت هذه الجراحة نجاحا.

كما أجريت جراحة ناجحة ثالثة لزراعة القلب مرة أخرى في مدينة «الرأس بمعرفة الجراح كريستيان برنارد بعد شهر واحد من إجراء جراحته التاريخية الأولى. وقد عاش الانسان الذي استقبل القلب هذه المرة لعام ونصف عام بعد الجراحة؛ بالمقارنة الى المستقبل في الجراحة الأولى الذي عاش لثمانية عشر يوما فحسب.

بعد النجاح الأول لجراحة زراعة القلب، أجريت قرابة مائة وخمسين جراحة من هذا النوع، في حوالي ستين مركزا في أنحاء متفرقة من المعمورة، في العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩م.

على أن اكتشاف ظاهرة «الرفض»، التي تؤدي الى وفاة مستقبل القلب ان عاجلا أو آجلا، كان سببا في انكماش طفرة الستينات، وتراجع مراكز كثيرة عن إجراء هذا النوع من الجراحة. وبحلول عام ١٩٧٤م، لم يكن في العالم أجمع سوى أربعة مراكز توالي البحث والعمل في جراحة زراعة القلب. وهذه المراكز هي جامعة ستانفورد، وكلية طب فيرجينيا (كلاهما في الولايات المتحدة) ومدينة الرأس في جنوب افريقيا ومستشفى «لابيتيه — La Pitie في فرنسا. وقبل نهاية السبعينات، انضم الى هذه المراكز الأربعة مركز خامس من بريطانيا، مقره مستشفى «هارفيلد — Harefield» في ضاحية Middlesex.

وقد أدت مثابرة هذه المراكز الى ابتكار تدابير علاجية للتحكم في ظاهرة الرفض. وكان ادخال العقار «سايكلوسبورين — Cyclosporine»، الكابح لجهاز المناعة، الى دائرة علاج ظاهرة «الرفض» في عام ١٩٨٣م، فتحا جديدا أعاد الاهتمام بجراحة زراعة القلب الى سالف عهده.

لمن يعطى القلب ؟!

عادة ما تجرى جراحة زراعة القلب على انسان مصاب بمرض في قلبه، بحيث يتوقع أن يؤدي المرض الى وفاته في غضون ستة أشهر على أكثر تقدير. وتوقع الوفاة مبني على التقديرات العلمية والخبرة الطبية وليس على التخمين.

وعلى أية حال، فليس كل مصاب بمرض في القلب في مراحله النهائية يمكن اعطاؤه قلبا جديدا. اذ يتعين توفر الشروط التالية فيمن يعطى أو يستقبل قلبا جديدا:

* ألا يكون تجاوز الخمسين من عمره.
* ألا يكون مصابا بأمراض معينة تحول دون استخدام العقاقير الكابحة لجهاز المناعة بعد اجراء الجراحة. من ارتفاع ضغط الدم الرئوي، احتشاء (موت جزء من) احدى الرئتين خلال الشهرين السابقين للجراحة، وجود عدوى نشطة في الأيام القليلة السابقة للجراحة، التهاب القصبة الهوائية الحاد أو الخطير، التسمم بالكحول (نتيجة الادمان) مرض الكبد، امراض الأوعية الدموية، نقص كفاءة الكليتين.
* توافق فصائل الدم بين المتبرع (او المتطوع) بقلبه وبين المستقبل. أما توافق العامل الحاث الموجود على غشاء خلايا الدم البيضاء — Human Leucocyte Antigen أو اختصارا «HLA» فلم يعد شرطا ضروريا وفق المتبع في المراكز المذكورة عاليه.

بسبب التكاليف الباهظة لجراحة زراعة القلب، وبسبب العبء النفسي الكبير الواقع على الانسان المستقبل، وبسبب حجم العمل الفني والمهني في مثل هذه الجراحة، يتعين إجراء تقييم نفسي للمريض قبل الجراحة، للتأكد من صحته النفسية وملكاته العقلية وقدرته على استيعاب الموقف نفسيا وذهنيا، مع الاستعداد لتحمل الأعباء والنتائج المترتبة على الجراحة.

مَن يتطوع بالقلب ؟

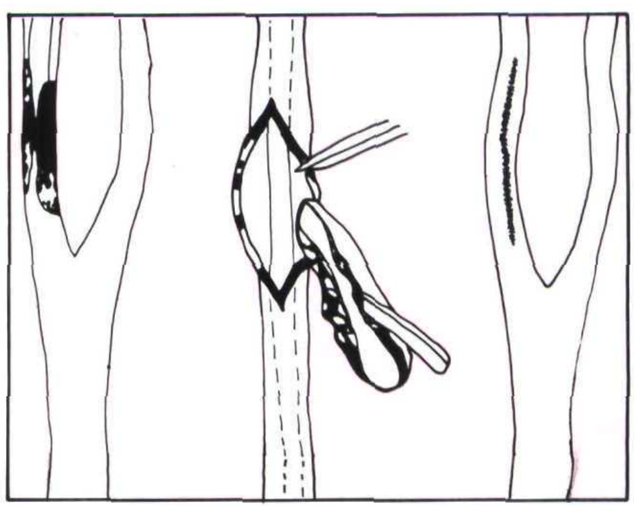
كما مع الانسان المستقبل ، فان المتطوع بقلبه ينبغي ان يحقق عددا من الشروط، هي:

* ان تعلن وفاة المتبرع بقلبه بين الثانية عشرة والخامسة والثلاثين اذا كان ذكرا، وبين الثانية عشرة والأربعين اذا كانت انثى. والمتفق عليه بين جراحي زراعة القلب هو عدم تجاوز الحد الأقصى للعمر المذكور أي خمسة وثلاثين عاما للمتبرع الذكر، وأربعين عاما للمتبرعة الانثى.
* توافق وزن الجسم بين المتبرع والمستقبل، بحيث لا يقل وزن جسم المتطوع عن وزن جسم المستقبل بأكثر من نسبة عشرين في المائة. ويمكن أن يزيد وزن جسم المتطوع على وزن جسم المستقبل بنسبة ثلاثين الى اربعين في المائة.
* ألا يكون المتبرع بقلبه مصابا بمرض في القلب أو بمرض عضوي، وان يكون جسمه خاليا من أي عدوى وقت استخراج القلب منه.

وعادة يؤخذ القلب من ضحايا الحوادث، خصوصا صرعى إصابات الرأس. ويشترط لذلك وجود تصريح مسبق باستخراج القلب في حالة الوفاة. ويتمثل ذلك في حمل بطاقة التبرع بالأعضاء، أو في تسجيل الاسم — أثناء الحياة — ضمن قائمة المتطوعين في احد المراكز الطبية المشتغلة بهذا الأمر.

تحصيل القلب

يجب أن نبادر الى القول بأن جراحة زراعة القلب ما كانت لتتم لولا فضل دعم التقدم الذي احرزه الانسان في النصف الثاني من القرن العشرين، على كل صعيد. فإن سهولة الاتصال ويسر الانتقال، مكنتا من التنسيق بين سائر المراكز المختصة لتدبير الحصول على قلب متطوع في أقل وقت ممكن.



تستعمل الجراحة لازالة الترسب، من جدار الشريان، إذا ما أعاق ذلك الترسب تدفق الدم بصورة عادية.

ان الخطة المتبعة في سائر مراكز زراعة القلب هي عمل قائمة باسماء كافة المرضى الذين ينتظرون توفر قلب متطوع. وتشمل هذه القوائم كافة المعلومات المتعلقة بكل مريض يرد اسمه على القائمة. ويجري تبادل هذه القوائم بين المراكز المختصة في عملية تنسيق تعتبر حجر الزاوية في نجاح المهمة كلها.

عندما يتوفر متطوع في احد المراكز يتوافق من حيث المبدأ مع مستقبل في مكان آخر، فسرعان ما يتم تبادل المعلومات بين المركزين، والتجهيز بسرعة لاجراء الجراحة. ثم ينطلق فريق طبي من المركز المستقبل الى مركز المتطوع على جناح السرعة، حيث يقوم ذلك الفريق، بمعاونة فريق محايد (أي غير متخصص في ولا مشتغل بزراعة القلب) من مركز المتطوع بفحص الانسان المتبرع، والتحقق من وفاته من ناحية، ومن وفاته بالشروط سالفة الذكر من ناحية ثانية. وبعد الفراغ من هذه الخطوة الأولية والتثبت من صلاحية قلب المتطوع، تؤخذ عينة دم من الانسان المتطوع وترسل بسرعة الى المركز المستقبل لتحليلها ومضاهاة النتائج مع نتائج تحليل عينة دم من الانسان المستقبل.

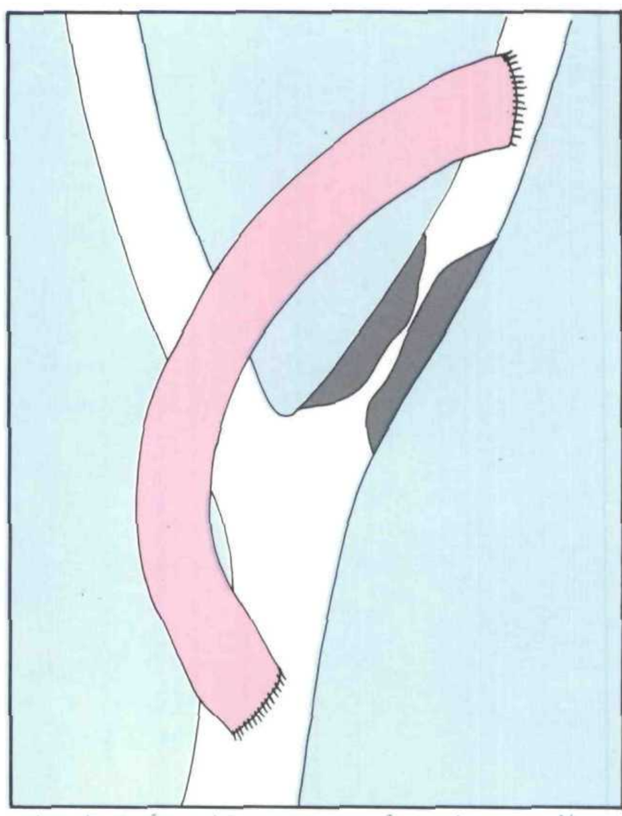
وهنا يجب لفت الانتباه الى أن مهمة مركز المتطوع هي المحافظة على دورة الدم في جسم المتبرع بعد موت مخه. ويمكن تحقيق ذلك بالاستعانة بأجهزة دعم الحياة — Life-Support Machines.

وينقل جثمان المتطوع بعد ذلك الى غرفة العمليات، حيث يجري استخراج قلبه. واذا كان ذلك الميت قد تبرع أثناء حياته بأكثر من عضو مثل القلب والكبد والكليتين، فيكون في مسرح العمليات في هذه الحالة أكثر من جراح، كل يختص باستخراج العضو الذي جاء لأجله. ويجري التنسيق وتقسيم العمل بين الجراحين قبل بداية تشريح الجثمان.

وبمجرد استخراج القلب من جثة المتطوع، يخطر المركز المستقبل فورا بذلك. ومن هذه اللحظة الى عودة الفريق بقلب المتطوع الى مركز الاستقبال، يستمر الاتصال بمعدل مرة كل خمس عشرة دقيقة على الأقل، لضمان تنسيق خطوات العمل وتجهيز المريض المستقبل لجراحة زراعة القلب.

حفظ القلب

أثناء استخراج قلب المتطوع، يعالج القلب بعدة محاليل وعقاقير الغرض منها تبريد القلب وتجهيزه للحفظ إلى ان يصل الى غرفة العمليات في مركز الاستقبال. وبمجرد



في حالات انسداد الشريان تجرى عملية جراحية لعمل «تحويلة» لمرور الدم. ويتم ذلك بزرع وصلة، تؤخذ من وريد في الفخذ، لتصل بين جزئي الشريان قبل الموضع المسدود وبعده.

استخراجه من جسم المتطوع، يوضع القلب في محفظة (كيس) معقمة تحتوي على مائتي سنتيمتر مكعب من محلول خاص ــ Loctated Ringer's solution عند درجة أربع مئوية. ثم توضع هذه المحفظة داخل محفظة أكبر من البلاستيك بحيث يكون القلب معلقا داخلها في وضعه الطبيعي. ثم تلف محفظة البلاستيك بعدة أكياس معقمة، ثم توضع في وعاء تبريد (إناء يحتوي على ثلج).

وعلى الرغم من أن قلب المتطوع يمكن حفظه بالطريقة المذكورة لغاية أربع وعشرين ساعة من وقت قطع الدم عنه أثناء جراحة استخراجه، إلا أن الإجماع بين المراكز المختلفة هو عدم تجاوز فترة أربع ساعات على القلب المحفوظ عند زراعته في الانسان المستقبل. وقد أجريت جراحة زراعة القلب بعد سبع عشرة ساعة من استخراجه من جسم المتطوع. لكن فترة الأمان في نظر مراكز زراعة القلب هي ثلاث الى اربع ساعات من وقت قطع الدم عن قلب المتطوع.

وبسبب قصر فترة الأمان، تتضح أهمية سرعة التصرف، وسرعة الانتقال. فأما سرعة التصرف فتوفرها مهارة الفريق الذي يأخذ على عاتقه مهمة إحضار قلب المتطوع. وأما سرعة الانتقال فتتوفر بتخصيص مخرج خاص من غرفة العمليات مباشرة الى حيث تربض طائرة مروحية لنقل الفريق اما الى مركز الاستقبال وإما الى أقرب مطار، ليستقل الفريق طائرة سريعة الى مركزه.

مابعد الجراحة

لن نتطرق هنا الى التفاصيل الفنية لاجراء الجراحة، لأنها وراء نطاق هذا المقال.

بعد زراعة القلب، ينقل المريض الى وحدة العناية المركزة، حيث يفرض عزل كامل بهدف تقليص فرصة حدوث عدوى. ويتابع فريق متخصص نشاط القلب المزروع، وكذا باقي أجهزة الجسم، على مدار الساعة. ويستعان في ذلك بعشرات الأجهزة المتقدمة.

يعطى المريض من وقت وجوده في غرفة العمليات عدة عقاقير رئيسية، عن طريق الحقن في الوريد بادىء الأمر، ثم عن طريق الفم حالما يتمكن المريض من ذلك. أهم هذه العقاقير ما يلي:

* مضاد حيوي، لتقليل فرصة حدوث عدوى أو لمنع حدوثها.
* أحد مستحضرات هورمون كورتيزون، لتمكين الجسم من احتواء صدمة الجراحة.
* عقار لتنشيط عضلة القلب المزروع وتنظيم ضرباته.
* عقار كابح لجهاز المناعة في جسم المستقبل، للحيلولة دون وقوع ظاهرة «الرفض».
* من اليوم الثاني بعد الجراحة ولمدة اسبوعين، يعطى المريض عقارا لمنع تكون جلطة داخل الأوعية الدموية.

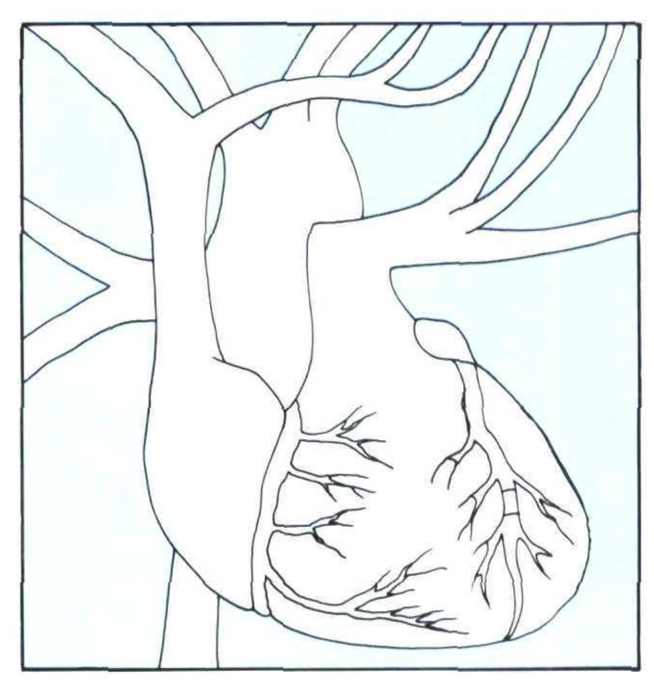
ويستمر تعاطي المريض على تلك العقارات لفترات متباينة تبعا لدورها في العلاج، وتبعا لتطورات الحالة.

في اليوم الثالث بعد الجراحة، يبدأ المريض في الحركة داخل غرفته. ومن هذا اليوم فصاعدا، تزداد حركة المريض يوما بعد يوم، على ضوء برنامج معين يتضمن تمرينات رياضية.

يبقى المريض في وحدة العناية المركزة ما بين ستة الى عشرة أيام ما لم تحدث مضاعفات. بعدها ينقل المريض الى قسم في المستشفى حيث يبقى نزيلا ما بين خمسة الى سبعة أسابيع. واذا سارت الأمور على ما يرام، يسمح للمريض بمغادرة المستشفى، ليستأنف بالتدريج حياته اليومية المعتادة.

المضاعفات

أخطر المضاعفات لجراحة زراعة القلب الظاهرة المسماة «الرفض ــ Rejection». فجهاز المناعة في جسم الانسان



الترسب في جدار الشريان التاجي الايسر يعيق مرور الدم من خلاله ويقلل من الاكسجين الضروري لعضلة القلب.

المستقبل يعامل القلب المزروع كجسم غريب، فيكون اجساما مضادة له. وتعمل الأجسام المضادة على قتل الجسم الغريب ـ الذي هو في هذه الحالة القلب المزروع.

حدوث معركة بين الاجسام المضادة كوسيلة دفاعية من ناحية، وبين الجسم الغريب (القلب المزروع) من ناحية اخرى، هو ما يسمى «الرفض». أي ان الجسم يرفض استقبال ذلك الجزء الغريب (القلب المزروع).

هناك صورتان (أو نوعان) لظاهرة الرفض: احدهما يسمى «الرفض الحاد»، وفيه تحتدم المعركة خلال أيام قليلة من زراعة القلب فتؤدي الى ابطال عمله، وبالتالي موت الانسان المستقبل بعد أيام من الجراحة. والنوع الثاني يسمى «الرفض المزمن»، ويحدث على مدى عدة شهور قد تصل حصيلتها الى عامين أو أقل أو أكثر قليلا، ويؤدي الى نفس النتيجة السابقة موت الانسان المستقبل!.

من هنا فإن تعاطي عقار كابح لجهاز المناعة بعد جراحة زراعة القلب يعتبر ضرورة حيوية. وهناك تقارير مستفيضة في هذا الشأن مفادها ان استخدام العقار «سايكلوسبورين» الكابح لجهاز المناعة، منذ عام ١٩٨٣م الى اليوم، جاء بنتائج مشجعة!

وعلى أية حال، فإن استخدام العقاقير الكابحة لجهاز المناعة أمر لا يخلو من الخطر في حد ذاته. فإذا كان الكبح يحول دون الرفض، فإنه من جهة أخرى يفتح الباب واسعا أمام حدوث عدوى! ذلك أن جهاز المناعة من خطوط الدفاع الرئيسية في الجسم ضد العدوى. فاذا انهارت قلعة جهاز المناعة فلا عجب ان يتعرض الجسم للغزو بشتى الميكروبات.

لذلك فإن العدوى هي ثانية أخطر مضاعفات جراحة زراعة القلب. واخطر ما تكون العدوى في الرئتين، اذ قد يودي التهاب حاد في الرئتين بحياة المريض، على الرغم من نجاح الجراحة (فنيا) وخلوها من المضاعفات!

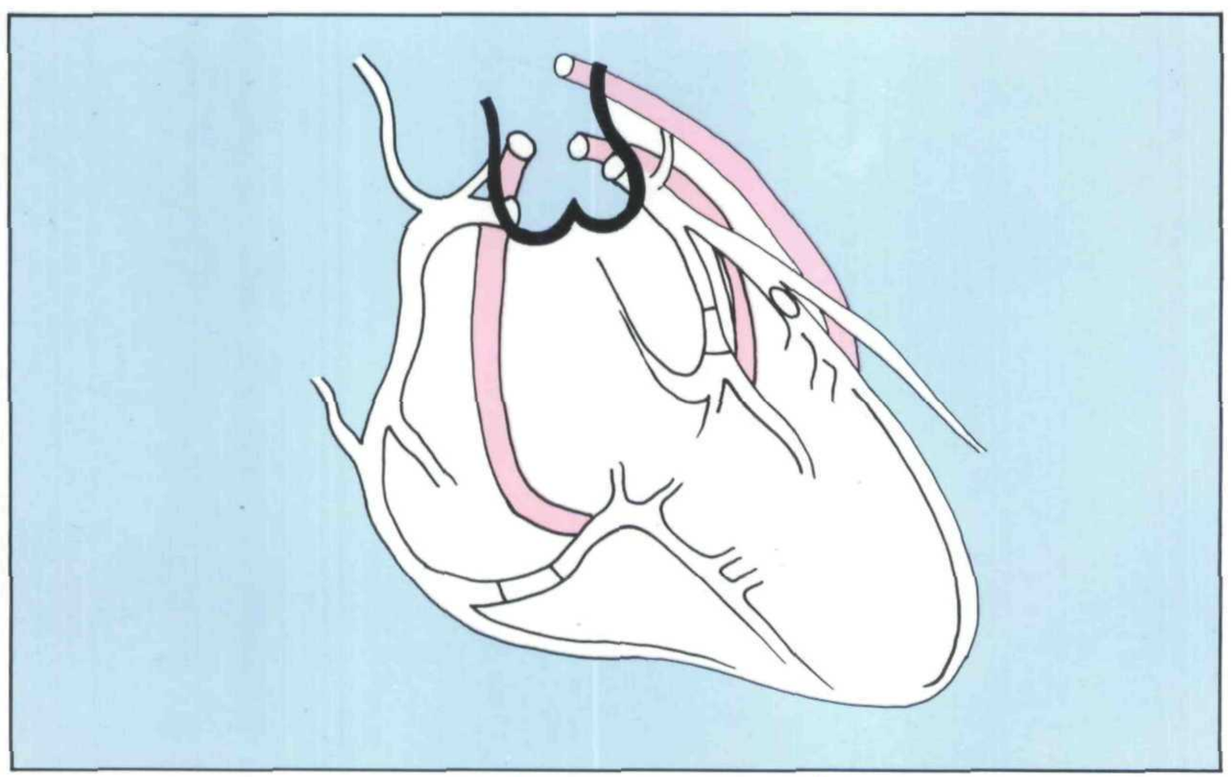
ما عدا ذلك فإن مضاعفات جراحة زراعة القلب مماثلة لمضاعفات اية جراحة كبرى. (بمعنى انه ليس مقصورا على هذا النوع من الجراحة ـ ولهذا لن نتطرق لذكره).

اعتبارات اقتصادية وقانونية

جراحات زراعة الأعضاء، بما في ذلك جراحة زراعة القلب، من أغلى أنواع الجراحة وأعلاها تكلفة. ففي الولايات المتحدة يكلف المريض الواحد ما بين خمسة وخمسين الف الى مائة وخمسين الف دولار! ويشمل هذا المبلغ التكاليف الفعلية لاجراء الجراحة، مضافا اليها تكاليف الاقامة في المستشفى لمدة خمسة او سبعة اسابيع بعد الجراحة. وفي بريطانيا تكلف الجراحة وحدها حوالي تسعة آلاف جنيه، خلافا لنفقة الاقامة في المستشفى وتكاليف العلاج.

عامل التكلفة مسألة هامة على كل صعيد. والعلاج الطبي ليس استثناء من القاعدة. وهذا أمر يؤخذ في الاعتبار عند تقييم جدوى أية وسيلة علاجية والنظر الى امكانية استمرارها في المستقبل.

فضلا عن العامل الاقتصادي وتحكمه في مستقبل جراحة زراعة القلب، هناك اعتبارات قانونية ذات أبعاد خطيرة. واذا كانت المؤسسات الطبية، متمثلة في منظمة الصحة العالمية، قد تمكنت من التغلب على عقبة تعريف الوفاة بوضع الشروط اللازمة لتشخيص موت الدماغ، تبقى عقبة الحصول على عدد كاف من المتطوعين لتغطية الطلب الزائد على أعضاء للزراعة. وبينما لا تسمح كثير من البلدان ـ وفق القوانين المعمول بها فيها ـ باستخراج عضو من جثمان انسان ميت ما لم يكن ذلك الانسان متبرعا اختياريا (اراديا) أثناء حياته بذلك العضو، فإن بلادا أخرى، ادخلت قوانين جديدة مفادها أن كل انسان ميت يعتبر متبرعا بأعضائه ما لم تكن هناك وصية مسبقة بعكس ذلك. والانسان في تلك البلاد الأخيرة لا يحتاج الى حمل بطاقة تبرع بالأعضاء، وإنما يحتاج الى حمل بطاقة بعكس ذلك!



صورة توضح ثلاث توصيلات من الشريان الأورطي الى ثلاثة شرايين في القلب أصيبت بالانسداد. وتمتد الوصلات من الاورطي الى ما بعد الانسداد في الشريان المصاب.

وفي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها يستوجب القانون وجود تصريح مسبق من أي إنسان بالتبرع بأعضائه عند الوفاة. لكن في بلاد اسكندينافيا خصوصا السويد، كل ميت يعتبر قانونا متبرعا بأعضائه، ما لم يصدر عن الانسان أثناء حياته ما يحجب ذلك!

من غير المعروف ما اذا كان تعديل القانون على هذا النحو في السويد سوف يحل مشكلة نقص الاعضاء! فكما هو واضح مما سلف عن شروط التبرع، انه ليست كل الأعضاء تصلح من أي انسان للزراعة!

احتمالات المستقبل

يمكن تشبيه جراحة زراعة القلب بالسفر الى الفضاء من حيث أن كليهما يحتاج الى كفاءة علمية فائقة، ومهارة فنية عالية، مع حشد من التكنولوجيا الآلية، أو بتعبير أبسط، أجهزة متقدمة، وقبل كل هذا وبعده، مال وفير.

ومعنى ذلك أن جراحة زراعة القلب سوف تبقى محصورة في عدد قليل من البلدان الغنية المتقدمة علميا ومهنيا، لزمن غير قصير.

من جهة أخرى، فقد لا يكتب الاستمرار لجراحة زراعة القلب حتى في البلدان الغنية، ما لم تتدخل الحكومات لتحمل النفقات الباهظة. اذ ما يزال الدعم الحكومي الذي تتلقاه مراكز زراعة القلب في الولايات المتحدة وبريطانيا، محصورا في دائرة تشجيع الأبحاث الطبية.

ومن المنظور أن تلقى قوانين مثل تلك التي أقرتها السويد معارضة شديدة اذا ما أريد إقرارها في بلاد مثل الولايات المتحدة وبريطانيا. وعلى ذلك، فإن مشكلة توفير عدد كاف من أعضاء المتطوعين سوف تبقى قائمة لزمن يصعب تقديره.

فضلا عن ذلك كله، يبقى هناك سؤال ملح عن جدوى جراحة زراعة القلب، وعن نوعية الحياة التي يعيشها الانسان المستقبل بعد الجراحة. فمعدل الحياة لخمس سنوات ما زال يتأرجح حول أربعين في المائة. ومعدل الحياة لعامين بعد الجراحة لم يتجاوز سبعين في المائة □

المراجع

1 — Bernard, C.N. (2968): Human cardiac transplantation. American Journal of Cardiology, 22: 584—596.

2 — Baumgartner, W.A. (1983): Infection in cardiac transplantation. Heart Transplant., 3: 75—80.

3 — Thompson, M.E. (1983): Selection of candidates for cardiac transplantation. Heart Transplant., 3: 65—69.

4 — James, M.L. & Robert, B.K. (1985): Heart Transplantation. Surgical Clinic of North America, Vol. 65, No. 3, pp 613—635.

حدود فاصلة

أوداً قبل كل شيء أن اعترف ان الكتابة النقدية ليست عملا سهلا في أيامنا هذه. بل أزيد على ذلك أن الذي يحمل القلم ليعالج موضوعا نقديا هو كمن يريد أن يسير على القتاد أو كمن يفكر في اقتحام حقل ألغام. إنك لا تعرف حين تعبر عن رأيك في قضية نقدية عدد من يرضون عن آرائك ونظراتك أو من يغضبون منها. وبخاصة اذا كنت ممن يقولون بالرأي صريحا ويعرضون الفكرة جلية واضحة.

وليس ثمة من يماري في أن النقد الأدبي فقد كثيرا من قيمته ورصانته في السنوات الأخيرة. فقد نزل عن شيء من حريته وصفائه للتيارات السياسية والاتجاهات التي هيمنت وتحكمت دونما وعي او دراية. بل لقد أصبح الشاعر الكبير هو الذي يسلم زمام نفسه لتلك التيارات مستلهما مبادئها. قال لي أحدهم: انني اختلف معك في اصرارك على الفصل بين الشعر والسياسة. قلت: انني لا أذكر اني دعوت في يوم من الأيام الى الفصل بين الشعر والسياسة فشعري معظمه وطني سياسي. أما الذي دعوت اليه مرارا وتكرارا فهو عدم الخلط في نقد الشعر وتقييمه بين مقاييس النقد الأدبي ومقاييس السياسة. وأظن ان هذا مطلب واضح وعادل. فلكل موضوع مقاييسه وأحكامه. ونحن نخطيء اذا رحنا نزن موضوعا بمقاييس موضوع آخر.

ومن الأمثلة على هذا الخلط في المقاييس أن أحدهم زعم أنه يهاجم الشعر الكلاسيكي بدعوى الدفاع عن الحرية والعدالة والمساواة، وغيرها من الشعارات التي سئمتها الاسماع ومجتها النفوس وعافتها العقول لكثرة ما لاكتها الألسن وتداولتها الأقلام وتعاورتها الصحف. ومن الغريب أن يصدر هذا الكلام في صحيفة يومية. ذلك أن صاحبنا يظن أن تجريد الشعر من قوانينه وأصوله هو تحقيق للحرية وتطبيق للعدالة وترسيخ للمساواة. فهو يرى ان العروض عائق وأن الموسيقى عقبة وأن النحو قيود وأغلال، وأن التخلص من هذه العوائق والعقبات من شأنه أن يفتح الباب واسعا أمام جماهير المظلومين المكبوتين الذين يحبون أن يعبروا عن ذوات أنفسهم، لولا أن قوانين الشعر وأحكامه تخذلهم وتمنعهم من تحقيق رغباتهم ومطامحهم.

وصاحبنا هذا الذي يدعو الى القضاء على قوانين الشعر وأحكامه، باسم الحرية والعدالة ليس فردا في وطننا العربي الكبير. فقد عرفت من مثله نماذج متعددة جعلوا من الشعر الكلاسيكي عدوهم اللدود وخلطوه بالرجعية والاستعمار كما خلطوا الشعر الحديث بالتقدمية والتحرر. وضاع موضوع الفن في زحمة الشعارات التي لا علاقة لها لا بالشعر ولا بالفن. وقد تبين لي من خلال الخبرة الطويلة وبالبرهان الواضح أن هؤلاء ليس لهم علاقة بالشعر لا من قريب ولا من بعيد. ولقد قدر لي أن أستمع الى كثير من هؤلاء في مناسبات مختلفة. فكنت أعرف من خلال خطاباتهم التي لم يكن يتحقق فيها أي مستوى لغوي أو بلاغي، الدوافع التي تحملهم على اتخاذ مثل هذه المواقف المعادية للشعر وقوانينه وأحكامه.

بين النظم والشعر

بقلم: د. جميل علوش / الاردن

وليست هذه المواقف محصورة في السياسيين والحزبيين بل هي تمتد لتشمل كثيرا ممن لف لفهم من كتاب القصة والرواية والمقالة الصحفية الذين يجمع بينهم قاسم مشترك هو عدم الرغبة في قراءة الشعر الكلاسيكي بسبب عدم القدرة على تذوقه. ولا شك أن حسن التذوق يستلزم حسن الفهم، كما أن حسن الفهم يستلزم حسن القراءة. فالذي لا يستطيع أن يقرأ لا يستطيع أن يفهم والذي لا يستطيع أن يفهم لا يستطيع أن يتذوق. ومن لم يستطع أن يتذوق لا يرى بأسا في أن يقذف بالتهم جزافا.

ويوجه هؤلاء تهما كثيرة الى الشعر الكلاسيكي أود أن أتوقف عند واحدة منها، ألا وهي تهمة النظم. فكل شعر يلتزم النهج الكلاسيكي في المحافظة على الوزن والقافية هو شعر منظوم في نظرهم. ويكفي أن ينظر الواحد منهم الى القصيدة ليحكم بأنها نظم أو أنها منظومة. ولا يكلفه هذا الحكم أكثر من إجالة النظر في القصيدة لأن الوزن والقافية ظاهران للعيان. بل ان الشعر الكلاسيكي له شكل ظاهر لا يمكنه ان يخفيه أو أن يتبرأ منه. ولقد أصبحت هذه التهمة عندهم كبقية التهم التي أمست لفرط ترديدهم لها ضروبا من العيوب التي يخجل منها الشاعر ويتوقاها. ومنها شعر المناسبات مثلا فقد أخذ كثير من الشعراء يتجنبون إثبات ظروف نظم القصيدة الى جانب عنوانها خشية أن يتهموا بأنهم شعراء مناسبات.

فالنظم في عرف هؤلاء أن يكون الكلام موزونا مقفى. وهم قبل كل شيء لا يعترفون بالتعريف المشهور للشعر بأنه كلام موزون مقفى. ويأخذون عليه أنه لا يتطرق الى المعنى أو المضمون. وهم لا يعلمون أن الكلام في اللغة هو ما أفاد معنى. ولا يقال لما لم يفد في التراكيب معنى كلام. قال صاحب «لسان العرب» بهذا الشأن: إن الكلام لا يكون إلا أصواتا مفيدة. واذا كان الأمر كذلك فكيف يقال أن العرب حينما عرَّفوا الشعر اهتموا بالشكل وأهملوا المضمون؛ أليس الكلام شكلا ومضمونا؟

ومن الجدير بالتنبيه أن كلمة النظم أخذت من نظم الدر واللؤلؤ في السلك. ولا شك أن لمنظر الدر في العقد حسنا لا يعدله حسن الدر منثورا غير منظوم. قال ابن رشيق في ذلك: ان كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة. ألا ترى ان الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب وان كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا، فاذا نظم كان أصون له من الابتذال وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال. وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدد في الأسماع وتدحرج عن الطباع. فاذا اخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته واتخذه اللابس جمالا والمدخر مالا... الخ.

والعرب يفتخرون بالنظم كما اسلفنا ولا يعتدون النظم عارا كما يفعل بعض أبناء هذا الجيل ممن يذمون كل شيء لا يقدرون عليه. بل لم يكن العرب يفرقون بين الشعر والنظم فكل شعر عندهم نظم ولا يعكس،أي ليس كل نظم شعرا والمتتبع لشعر خليل مطران ولإسهاماته القليلة في نقد الشعر

يلاحظ أنه يكثر من وصف شعره بالنظم مع العلم أن خليل مطران كان من أكثر الشعراء عناية بروح الشعر ولم يكن ممن يعيرون الشكل اهتماما أكثر من المضمون. وقد نقل عن المتنبي قوله: انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري. واذا كان الأمر كذلك فان المتنبي يعترف بأنه ليس شاعرا بل حكيم. وحكيم تعني أنه ناظم لأن الحكمة غير الشعر. فالحكمة تقوم على العقل أما الشعر فيقوم على العاطفة والخيال. ومع ذلك فقد بقي المتنبي شاعرا في عرف كبار النقاد والشعراء. وكذلك بقي أبو تمام شاعرا كبيرا. بل نحن نستطيع القول ان المتنبي وأبا تمام هما كبيرا شعراء العربية، وكثير من النقاد يفضلهما على البحتري،وابو تمام أكثر عمقا وشموخا من غيره من شعراء العربية.

والذين يتحدثون عن النظم ينسون أو يتناسون أن الشعر صناعة كما ينص ابن سلام، وليس وحيا ينزل من السماء كما يظن كثير ممن يتحدثون عن الشعر. وقد أكد هذه الحقيقة معظم الذين كتبوا في نقد الشعر ومنهم ابن خلدون الذي يقول: إعلم ان لعلم الشعر وأحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسجم على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب الخ.

وهذا يعني ان الشعر ليس وحيا ينزل على الشعراء وهم نيام، بل لا بد فيه من الممارسة والارتياض، فليس الشعر كهزج الأطيار وغناء العصافير، بل هو النسيج على منوال العرب في فن القول وتوخي معاني النحو في نظم الكلام كما قال عبدالقاهر الجرجاني. فالذي لا يجيد النظم لن يستطيع أن يكون شاعرا. فالاعجاز كما يرى عبدالقاهر الجرجاني يكمن في حسن النظم، وحسن النظم يكمن في توخي معاني النحو عند الصياغة. والعجيب أن الذين يجدون في قول الجرجاني هذا فتحا عظيما في علم النقد يتوقفون عند تجرد الاعجاب بنظرية النظم دون أن يحاولوا تطبيقها على شيء مما يقرؤون. ونظرية النظم عند الجرجاني تنطبق على الشعر كما تنطبق على النثر لأنه عند بسط النظرية كان يتحدث عن الاعجاز القرآني، بيد أنه خلال التعريف بالنظرية أكثر من التمثيل بالشعر، كما يحملنا على الاعتقاد انه إنما كان يشدد على الشعر بصفة خاصة.

ومن المعروف ان الشعر الكلاسيكي علاوة على تمسكه بالوزن، والقافية،يبقى على صلة وثيقة بالعقل ولا يضيع في متاهات العاطفة والمشاعر العليلة. ولذلك زادت النقمة عليه من دعاة المذاهب الأخرى وبخاصة أتباع الرومانسية والرمزية والسريالية الخ.. ولأن اتباع الشعر الحديث متأثرون بهؤلاء فهم يسمون الشعر الكلاسيكي بهذه السمة ويعدّونها من جملة الأسباب والدواعي التي تحملهم على وصفه بالنظم. فالنظم عندهم هو التمسك بالعقل لأن الشعر في عرفهم هو التخلي عن كل صلة به.

ويجدر بنا قبل ان ننتهي من موضوع الشعر والنظم أن نشير الى الحقائق التالية:

* ان النقاد العرب لم يفرقوا كثيرا بين الشعر والنظم، فكان كلا المصطلحين يدل على المقصود ويفي بالمراد. فلم تكن القضية مثارة بالجدة التي تثار فيها في أيامنا.
* كانت الحدود واضحة جلية بين ما يلحق بالشعر من الكلام المنظوم وما لا يلحق به. ويقصد بالنوع الثاني المنظومات العلمية التي كان العلماء يستعينون بها على تقريب العلوم وبخاصة ما نظم منها على بحر الرجز كألفية ابن مالك.
* من الدلائل القوية على احترام النقاد للنظم والصناعة الشعرية أن طه حسين الذي تخرج في السوربون مثلا كان يرى ان من مستويات النظم الجيد ما يرقى الى مستوى الشعر وكذلك كان يرى الأدب اللبناني انيس المقدسي والرافعي والزيات وغيرهم.
* أكثر من ذلك أن طه حسين كان يرى أن الأدب لا يستحق أن يسمى أدبا اذا لم يتوفر فيه عنصر البيان. كما كان الرافعي لا يسمي الأدب أدبا إذا لم تتوفر فيه عروبة الصياغة. هذا اذا شئنا ان يكون الأدب عربيا. والعجيب أن نقاد الجيل الجديد إن صح ان نطلق عليهم هذه التسمية يعدون البيان وعروبة الصياغة ضربا من النظم.

ولا بأس أن نعود الى الجرجاني فنورد شيئا مما قاله بهذا الخصوص: قال الجرجاني: ان هذا النظم الذي يتواضعه العلماء وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله صنعة يستعان عليها بالفكرة. هذا ما يقوله الجرجاني. ولا شك أن الصنعة تغني النظم، وأن الفكرة صورة من صور النظم أيضا في عرف نقادنا المحدثين على الأقل. لأنهم يرفضون أن يتقبلوا وجود صلة بين الشعر والصناعة والنظم فيتوهمون ان الشعر لا يتكون إلا من العاطفة والخيال. ومن المعروف ان العاطفة والخيال وحدهما وعلى المستوى الواقعي لا يكونان شعرا. ولو رجعنا الى ما قاله كبار شعراء العرب في الفخر بشعرهم لوجدناهم يشددون على النظم والصناعة اللفظية والتعويل على العقل واستيحاء الفكر □



أشواق ابن زيدون

شعر: خالد الشريقي / سورية

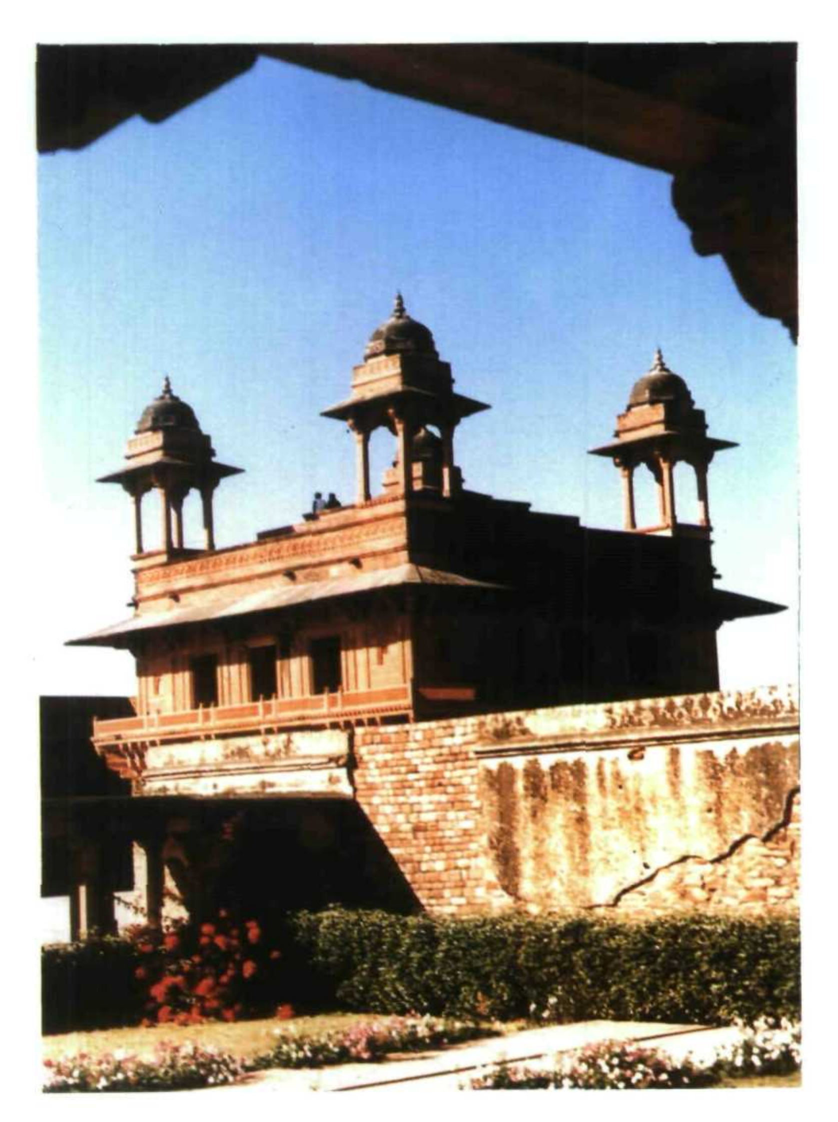
يا روعة الاندلس
يا طيبها المجدول فوق الشجر
كأنها مسروقة
من بهجة الفردوس
أو أنها مصاغة
من الجمال المبهر
لها الزمان عاشق
ومن لها لم يعشق
تخال ان تربها
شلال طيب عابق
قد خصها الله به
منعما بحسنها
وطيبها ولونها
تقول للعين اخجلي
وحاذري..
فانني أخشى سهام المقل
وعريها يفضح منها حسنها
فتحتمي بغيمة
والغيم منها يخجل
يذوب في أحضانها
دموع صب تهطل...

* * *

من قال اشكو وحدتي؟..
مفاتن الدنيا معي
احسها في خافقي ومسمعي
لكنني اشتاقها
اشتاق ظبيا ينشد
شعرا.. وبوح الجرح في آهاته
وعودها، احلى الأغاني يعزف
قالوا عبير الورد في انفاسها
والقد منها أهيف
ان جئتها جني الدوالي تقطف
وتجعل المحزون صبا فرحا
ان غنّت الموشحا...

* * *

قالوا.. وقالوا انها
(علية) في المغرب
لكنها تفوقها حسنا وظرف الأدب..
تجيد كل اللعب
قد طرزت في ثوبها
على حدود ساقها
اعطي.. واعطي قبلتي من يشتهي
وانها.. وانها من عبق الاندلس
مقطوفة من نرجس
اشتاقها..
اشتاق ان اعرفها
وان أكون حبها وأمنها وخوفها
وأن أقول الشعر في مجلسها
أذوب في أنفاسها
واكتوي بهمسها
ونارها
وجمرها
وأن تكون لي أشواقها
اشتاقها.. اشتاقها...



مدينة الفتح الاسلامية في سيكري
" ٦ "

بقلم : د. سعد حذيفة / جامعة الملك سعود / الرياض

تطرقنا في آخر مقالة لنا ، عن معلم هام من معالم "مدينة الفتح الاسلامية" "الاوهو" الديوان العام". أما حديثنا في هذا العدد ، فسنقصره على ديوان آخر ، هو ما عرف ب "الديوان الخاص". فقد كان هذا النوع من المباني المغولية ، في "شبه قارة الهند والسند" من أهم ما يفكر السلاطين المغول في إقامته ، وسنطلع القارئ الكريم على هذا المبنى وشكله الغريب ، والعجيب معاً ، بل والفريد في نوعه ربما في العالم قاطبة . وسوف أترك هنا للقارئ للحكم عليه . آملاً أن أكون قد وفقت في ابراز جزء من صفحة مشرقة في تاريخ أمتنا الاسلامية هناك .

الديوان الخاص للسلطان المغولي جلال الدين أكبر في مدينة الفتح الاسلامية

لعل من اهم مباني «مدينة الفتح» مبنى يقع خلف «الديوان العام» في «قرية سيكري». هذا الصرح عبارة عن مبنى صغير عرف بـ «الديوان الخاص ــ ديواني ــ خاص»، حيث كان السلطان يستقبل فيه الخاصة من الناس، وعلية القوم، وعلماء زمانه فرادى أو جماعات. يظهــر ذلك المبنى للمرء من الخارج وكأنه يتكون من دورين، بحيث يبدو غير مغاير لبقية المباني السكنية الخاصة المحيطة به. كما ان هذا المبنى يعتبر من مباني السلطان الخاصة، او الشبه خاصة، ان صح لنا التعبير، لانه يقع ضمن دائرة المباني الملكية الخاصة، والتي يحدها من الشرق «الديوان العام» ومن الغرب «المسجد الجامع الكبير».

يبدو هذا المبنى للناظر من الخارج، كغيره من المباني الاخرى المجاورة، مستطيل الشكل اكثر منه مربعا، وتبلغ مساحته الاجمالية حوالي ثلاثة وخمسين مترا مربعا. وهو مغطى بشرائح من الحجارة الرملية الحمراء، مصفوفة، وكل شريحة ملتصقة بالتي تليها بمادة اسمنتية ذات تركيب كيميائي معقد. لذلك، فقد كانت تلك المادة سر تماسك مباني «مدينة الفتح» في مجموعها، ويدعم ذلك السقف اعمدة مفتوحة الزوايا من الاركان الاربعة، يحتل قمة كل عمود على كل زاوية، قبة مربعة الشكل، يسند كل قبة اربعة اعمدة، وكل عمود عبارة عن كتلة صخرية واحدة. كما يظهر للناظر من الخارج شرفة خارجية، تتوسط المبنى، بحيث تبدو وكأنها حزام يشدها من وسطها ليربط بعضها ببعض، وتدور حوله من كافة جوانب المبنى الاربعة. يسند تلك الشرفة الدائرية اقواس منقوشة نقشا نافرا، يبلغ عددها في كل واجهة حوالي خمسة عشر قوسا، منها اربعة اقواس تتوسط كل واجهة، بحيث تسند جزءا من الشرفة العلوية فوقه، كما انها تسند عارضة «اوجباهة» المدخل، حيث يوجد هناك اربعة مداخل، يقع كل مدخل على واجهة من واجهات المبنى، في حين تقع الاقواس الاخرى في الاركان.

يوجد لهذا المبنى ست نوافذ مشعرة، الى جانب تلك الابواب الاربعة التي تقود الى بهو «الديوان الخاص»، فاثنتان من هاتيك النوافذ تقعان على الجانب الشمالي واثنتان على الجهة الجنوبية، ويتوسط المسافة بينهما باب للولوج من خلاله الى الداخل، حيث الممر الدائري المعلق، والجسور الاربعة، ومنصة السلطان وعرشه، كما سيرد معنا ذلك، واما الى الخارج، حيث الشرفة المطلة على البهو الخارجي العام. اما الجهتان، الشرقية والغربية فيتوسط كل واجهة نافذة واحدة فقط.

على الرغم من ذلك المظهر الخارجي، الذي يبدو للزائر امرا عاديا، الا انه سيجد بأن ذلك الصرح يتميز تميزا كبيرا، من الداخل، عن بقية مباني المدينة الاخرى، فهو يتميز من حيث تصميمه، وبنائه، وطريقة تشييده، وطرازه المعماري الفريد، ونقوشه الزخرفية الرائعة، كل ذلك يدل على تميز واضح، وخصوبة في الذهن، وان صاحبها ذو ذوق فريد، ومبدع في نفس الوقت. فأول ما يذهل الداخل هو ان هذا المبنى دور واحد، وبهو واحد، من ارضيته الى سقف قبته، التي تكون السقف العام للمبنى، ثم بعد ذلك سيجد ان مبنى «الديوان الخاص» متميز في كل شيء اشتملت عليه تقسيماته الداخلية المعقدة، حيث روعة التصميم، ومن ثم الدقة المتناهية عند تنفيذ ذلك التصميم، والتي تجلت فيها عبقرية السلطان جلال الدين أكبر المعمارية الفذة، وذوقه الرفيع، وشخصيته المميزة والعجيبة المحيرة في آن واحد فالروايات التاريخية تشير الى ان هذا السلطان هو الذي قام بتصميم هذا المبنى الرائع من الداخل، ليلائم ذوقه الرفيع، وميوله الفريدة.(١)

يتكون المبنى من الداخل من قاعة اجتماعات واحدة متصلة، على الرغم من انها تتمثل في دورين ولكنهما متصلان ببعضهما. وتبلغ مساحة ارضية هذه القاعة التقريبية حوالي ١٢ مترا طولا وعشرة امتار عرضا (١٢×١٠ = ١٢٠م٢).

ولعل ما يميز بناء هذه القاعة من الداخل امورا أهمها:

١ ــ العمود الكبير الحجم، والذي يتوسط ارضية القاعة، ثم يأخذ في الصعود الى اعلى، وكأنه قد فطر من الارض، ثم ظل يصعد الى جهة السقف، حتى يصل منتصف المسافة بين سقف القاعة، وارضيتها الملاصقة لمستوى الارض، التي يقف عليها المبنى.

٢ ــ الشكل الذي صمم ونفذ به هذا العمود، بحيث يتراءى للمشاهد بأنه كلما زاد طولا، اتسعت مساحة جهته العلوية وازداد ضخامة، حتى تنتهي قمته، ويظهر في شكل مخروطي، او بمعنى ادق مشروحي الشكل. وقد شيد ليسند قاعة صخرية، دائرية الشكل، معلقة في وسط بهو المبنى.

٣ ــ اربعة جسور معلقة، وهذه الجسور الصخرية الكبيرة، وكأنها قد نبعت من الزوايا الاربع للقاعة، كل واحد منها يبلغ طوله حوالى ثلاثة امتار تقريبا، حيث تمتد حتى تلتقي بقمة تاج العمود، وقد جاءت اليه من الجهات الأربع للبهو، أو القاعة، منفطرة من الممر العلوي المعلق، الذي يتوسط هو الآخر منتصف المسافة بين سقف الردهة وارضيتها، في شكل دائري، لتربط بين الممر الدائري المعلق وبين المنصة، التي يسندها العمود.

---

(١) Percy Brown, ''Indian Architecture (Islamic Period)'' Bombay, 1975, P: 96.

٤ ــ الممر الدائري؛ حيث يوجد شرفة معلقة، او ممر معلق، دائري الشكل، يظهر وكأنه حزام معلق ملتصق بجدران البهو الاربعة من الداخل، يوصل بين الشرفة، والحزام او الجسر المعلق وبين تاج العمود، تلك الجسور الاربعة، ويقل مستواه عن مستوى ردهة قمة العمود بدرجة واحدة فقط.

يستطيع المرء ان يصعد الى الممرات، والى الجسور والى ردهة المنصة السلطانية، من خلال ست عشرة درجة تربط بين ارضية الديوان والاجزاء الاخرى.

٥ ــ اقواس العمود؛ حيث يوجد حوالي ست وثلاثون قوسا تحيط العمود من جميع جهاته، بشكل دائري، وهي متدلية، من تحت تاج العمود بشكل مشروحي، غاية في الدقة والاحكام، ويوجد بها من النقوش النافرة ما يمثل الفنون السائدة آنذاك، وهي الاسلامي، والهندوسي، والمسيحي. وهذه الاقواس الكبيرة المعلقة، في شكلها المخروطي، عملت بشكل هندسي غاية في الروعة والجمال، وهي تحمل عليها ردهة دائرية. وعلى تلك الردهة، او المنصة كان يوضع كرسي العرش للسلطان المغولي، حيث يجلس عليه متوجا، لكي يستمع الى كل ما كان يجري حوله من نقاش يتعلق بأمور دينية او دنيوية، من قبل وزرائه، وكبار رجالات دولته، عامة، وعلماء الاديان والمذاهب، السائدة في سلطنته، من مسلمين، وبوذيين، وهندوس، ومسيحيين ولعل هذه الجلسات والنقاش الذي كان يجري في هذا الفرع من فروع المعرفة، كان من أهم الأغراض الذي شيد من أجله ذلك المبنى «الديوان الخاص» المعقد، والغريب الشكل. لقد كان يحتل ذلك الممر الدائري، أو الشرفة الحزامية، كبار رجالات الدولة حسب رتبهم، والأماكن التي خصصت لكل فرقة أو فئة، منهم. كان يقف في الأركان الأربعة من تلك القاعة، في بعض الاجتماعات، أكبر أربعة رجال من رجال هذا السلطان، وهم: خان خانان، «كبير الأمراء»، وبيربال، وفيضي وأبو الفضل، حيث يتم نقاش بعض الأمور المتعلقة بالدولة، مع السلطان، الذي كان يجلس على منصته الخاصة، والتي تحيط بها وبالحواف الخارجية للجسور التي تصب فيها، حواجز يبلغ ارتفاعها قرابة خمسين سنتيمترا، وهي من صفائح الصخور الرملية الحمر، وقد شُعِّرت، فظهرت وكأنها شبك مخلخل: ويستطيع أحد الجالسين الذهاب الى السلطان من خلال تلك الجسور المعلقة، والتحدث معه علانية، أو بشكل سري[٢].

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: ما هو منشأ فكرة تصميم هذا المبنى، على تلك الصورة العجيبة، والتي تبدو لي بأنها فريدة من نوعها، حتى

(٢) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة، كذلك انظر:

Satish Grouer, "The Architecture of India" New Delhi, 1981, PP: 181—182, Latif, Sayad Muhammad, "Agra" Lahore, 1981, PP: 136—137, A. L. Srivastava, "Akbar The Great", Agra, 1973, Vol. I, PP: 287—182.



منظر اكثر وضوحا لعمود الديوان الخاص وبهوه السفلي.

انني لا أجد نفسي مبالغا اذا قلت بأنه لا يجود له مثيل في العالم، حسب معرفتي؟ لقد طرقت إجابة هذا التساؤل، من قبل بعض الباحثين، وأضحت هذه المسألة موضوع جدل، وتخمين من هذا أو ذاك(٣).

إذا كان لنا كلمة هنا، فلا بد لنا من الرجوع الى الوراء لثلاثة قرون ونيف من الزمن، لكي نطلع على ما كان يجري في بلاط الخان المغولي، جنكيز خان، أو في بلاط أبنائه وأحفاده، القاآنات، الذين خلفوه على عرش امبراطوريته الواسعة الأرجاء؛ والمترامية الأطراف. لذلك فإن السلطان جلال الدين أكبر، وكما يبدو لي، لم يخرج عن التقليد، الذي كان يتبعه أجداده المغول منذ سالف الأيام. صحيح أن هذا السلطان المغولي في «الهند والسند» أضحى من مسلمي هذه الطائفة من البشر منذ أجداده، وآبائه من قبل، إلا أن تسامحه الشديد، بل المتطرف، كما يبدو لي، لم يخدم الاسلام ولا المسلمين في شيء. لذلك كانت هذه السياسة من المآخذ التي احتسبها عليه المسلمون. فالخان المغولي، أو القاآن، كان يدعو علماء الاسلام، ورجال الديانات الأخرى، وكبارهم، والمتضلعين منهم على وجه الخصوص، في مجلس عام يحضره الخان، ثم تتم فيه المناقشات حول كل ديانة، ثم يسأل الواحد منهم عن مسائل أو مسألته في دينه، من قبل رجال وعلماء الأديان الأخرى. ثم يتناقش الجميع في منافسة على أشد ما تكون، ونقاش حاد، وتفسيرات عميقة، حول ما ورد في دين هذه الطائفة أو تلك، من الكتب السماوية، كالقرآن الكريم، والانجيل، او تفسيرات لما يدعيه أتباع الأديان الوثنية، كالهندوسية، والبوذية وغيرهما.

كان هناك قواعد وأسس تنظيمية تسير على نهجها المداولات، ونقاش المسائل المطروحة، أهمها أن يكون نقاشا علميا بحتا، هادئا، متسما بالتسامح، وفوق ذلك كله ألا يتفوه احد من أتباع هذا الدين أو ذاك على خصمه، أو خصومه بأي كلام ناب، أو أن يجرح شعور احد منهم؛ ومن يفعل شيئا من ذلك يعاقب عقوبة تختلف باختلاف الجريرة التي تحتم العقوبة عليها قواعد تلك المناقشات، وقد تصل الى الاعدام. وقد تكلمنا في هذا الموضوع في بحث سابق لنا، فتكراره لا يخدم هذا البحث(٤). أما في عهد السلطان أكبر، فقد كان السليط اللسان، البذيء الاخلاق، هو الذي يحوز على رضى هذا الحاكم؛ ولو أن الشيخ البدعوني يذكر بأن السلطان أكبر كان قد طلب منه بأن يخرج من مجلس المناقشة كل من يتلفظ بكلمات نابية، وأكد على ذلك، إلا أن إجابة هذا الشيخ الى أحد رجال هذا السلطان، وهو شخص يدعى آصف خان، وبشكل سري، بأنه لو نفذ أوامر السلطان لأخرج معظم العلماء المجتمعين من ذلك المجلس(٥).

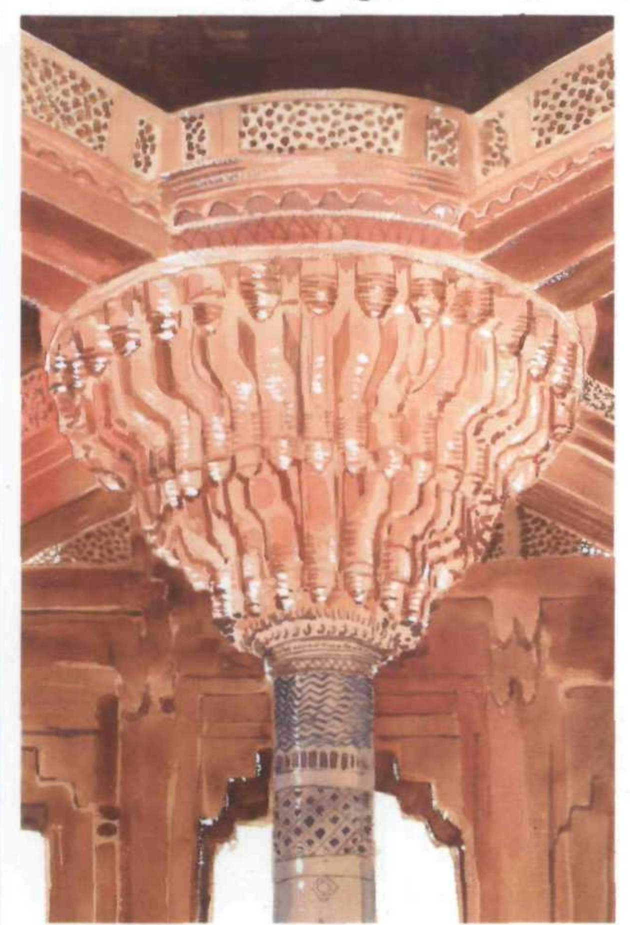
بناء على ذلك، فإن مسألة ما كان يجري في بلاط السلطان أكبر من نقاش حول الأديان المختلفة، والتي كان مجتمع دولته في «شبه قارة الهند والسند» يدين بها، على كافة طبقاتهم، المتباينة، إلا تقليد مغولي قديم، جدده السلطان أكبر، وعلى نفس المستوى من الحرية والتسامح الدينيين، لدرجة أن بعض من أتباع هذا الدين، أو تلك النحلة، يدعي جازما بأن هذا السلطان المغولي قد نبذ دين آبائه وأجداده، وهو الاسلام، وإعتنق دينه هو، لما أبداه من تسامح وتحمس لهذه الديانة أو تلك. لهذا، فلا غرابة عندما نجد أن دعاة المسيحية، أو الهندوسية يقولون بأن أكبر أمسى من أتباع ديانتهم.

أمّا ما يتعلق بكون السلطان أكبر قد تأثر، في تصميم وبناء «الديوان الخاص» بهذا الفن، أو بذاك، فلا أظن بهذا الاعتقاد؛ لأننا متفقون على ناحية واحدة، وهي أن تصميم وتنفيذ ذلك الصرح ما هو إلا من

(٣) S. Grouer, "The Architecture...," PP: 181—182.
كذلك نفس مراجع الحاشية رقم ٦٢ ونفس الأجزاء والصفحات.

(٤) لقد طرقت هذا الموضوع في بحث سابق ، ونشر ملخص له في «مجلة الحرس الوطني» العدد الثاني عشر، السنة الثالثة، ربيع الثاني، ١٤٠٣هـ. أما تفاصيله، فقد نشر الكثير من ذلك في «مجلة الدارة» المغول والوحدانية، العدد الأول، السنة التاسعة شوال، عام ١٤٠٣هـ.

(٥) البدعوني، «منتخب التواريخ»، ج/٢ ص/٢٠٥.



نموذج للعمارة الاسلامية في العصر المغولي.

تصورات، ومن ثم ابتكارات ذلك السلطان بلا شك.

أما نواحيه النقشية ، والزخرفية، فما هي إلا عصارة جمع، بل حشد، من الفنون السائدة في ذلك الوقت، لمدارس مختلفة؛ حيث نجد، على سبيل المثال أن الفن الاسلامي، والفارسي القديم، والهندوسي، والمسيحي، كلها قد ظهرت، وبشكل بارز، في ذلك البناء، حيث يكاد يكون لكل فن نصيب كبير في كل جزء من أجزاء ذلك «الديوان الخاص». فالعمود، مثلا ، يحمل على قاعدته الفن الاسلامي، والفارسي القديم، ثم يتوسط الفن المسيحي منتصفه، أما الهندوسي، والياني ، على التوالي، فيحتلان قسمه العلوي.

أما الجسور الأربعة، التي توصل، كقنوات، بين الأروقة الدائرية، حول أطراف ذلك البناء من الداخل،والمشرفة على القاعة العامة (أي انها عبارة عن طرق موصلة بين السلطان ومن يريد الذهاب اليه ممن يجلس على الشرفة الدائرية المعلقة) فيغلب على زخارفها الفن الاسلامي.

لعل هذه اجابة على ذلك السؤال المطروح آنفا، عن أسباب بناء هذا «الديوان الخاص» ومع ذلك، فقد أورد لنا مؤرخو السلطان أكبر إجابة على ذلك التساؤل، وعلى رأس قائمة أولئك المصنفين، البدعوني، وابو الفضل؛ إلا ان اجابتيهما لم تشفني،لذا كانت اجابتي. ولعله من المفيد أن أورد هنا ما اروده أهم مؤرخو عصر السلطان المغولي، أكبر، وهما المذكوران أعلاه.

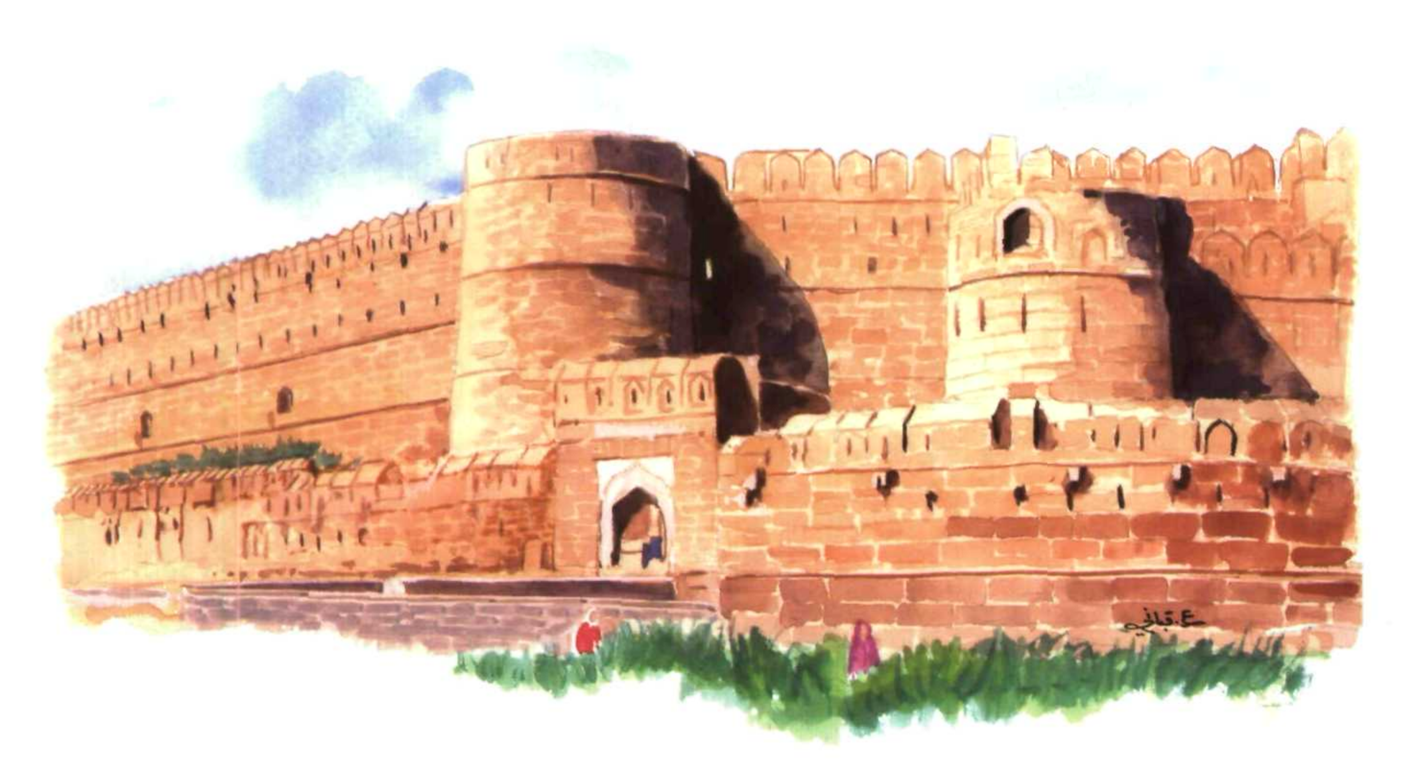
يذكر الشيخ البدعوني أن سبب بنائه هو أن السلطان كان قد أحرز انتصارات رائعة، بعد العديد من المعارك الحاسمة في خلال السنوات التي مضت في فترة حكمه؛ ونتيجة لذلك، فقد أخذت اراضي الدولة تتسع، يوما بعد يوم، وكل مشروع لفتح ارض جديدة، أو لاخماد فتنة، كان يتمخض عن نجاح باهر. لذلك لم يعد هناك أي مخالف على وجه مملكته، فأضحى السلطان متفرغا، لديه من الوقت الكافي ما جعله يتفرغ للتفكر، والتدبر في كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسوله، صلى الله عليه وسلم[٦].

أما العلامة أبو الفضل فيقول ان سبب بنائه لهذا الصرح وهو ما أسماه هذا المصنف بـ «بيت العبادة ــ عبادت ــ خانه» ليكون حلة زاهية تزين روحانية مملكته؛ على أن يشتمل على أربعة أروقة «ايوان»، وأن يكون بابه مفتوحا لذوي المواهب العلمية ليلجوه دون عائق. وأن يكون لكل شخص منهم مكان مناسب يجلس فيه[٧].

ورد هذا المبنى، عند مؤرخي عصر هذا السلطان وأهمهم أبو الفضل والبدعوني، على أنه مكـــان آخـــر، غير هـــذا، وذلك بسبب التسمية التي وردت عندهم لهذا المبنى، تحت اسم «عبادت خانه». إلا أن

(٦) نفس المصدر السابق ج/٢ ص/٢٠٣.

(٧) أبو الفضل، «أكبر نامه»، ج/٣ ص.ص/ ١٥٧ــ١٥٨.



جانب من سور مدينة «اكرا».

هذا هو ما يعرف اليوم بـ «الديوان الخاص»، لأن الوصف الذي أورده اولئك المؤرخون ينطبق تماما على مبنى «الديوان الخاص» ولا أظهر بأن هناك مبنى غيره لما يسمى بـ «منزل العبادة أو عبادت خانه» كما يظهر لبعض الباحثين[٨].

لقد قام السلطان أكبر بافتتاح هذا المبنى بعد سنة من الأمر بانشائه، وذلك في عام ٩٨٣هـ (١٥٧٦م)؛ وكان قد بدأ في بنائه عام ٩٨٢هـ (١٥٧٥م)، حسب رواية البدعوني[٩].

أما ما ورد في مصنف أبي الفضل، حول أروقة الديوان، والأماكن المخصصة لكل فئة، فيقول بأنه كانت هناك أربع فئات خاصة من مجتمع دولة السلطان أكبر، تلتقي في ذلك الديوان، ذي الأربعة أروقة؛ ففي الرواق الشرقي كان يجلس الأمراء؛ ويحتل الرواق الغربي العلماء ورجال الدين من ذوي الحرمة أو المهابة الدينية؛ أما الرواق الشمالي فكان مخصصا للصوفيين؛ بينما جعل الرواق الجنوبي مكانا خاصا ليجلس فيه الفلاسفة[١٠]. أما ما أورده البدعوني في هذا الخصوص، فلا يختلف عما اورده أبو الفضل[١١].

أما مكان جلوس السلطان، فيذكر أبو الفضل أنه كان يجلس في مكان يسهل جدا الوصول اليه، عندما يستدعي شخصا للتحدث معه في أي أمر من الأمور[١٢].

أما ما يتعلق بما كان يدور في ذلك الديوان، فيذكر هذا المصنف، بأن النقاش، والتساؤلات، حول مسأله دينية، أو دنيوية علمية فلسفية، وحول أية معضلة، من أي نوع كان، كانت تستغرق الليل بأكمله، في كثير من الاحيان. «...، ان الناس المجتمعين في ذلك المكان لا هم لهم سوى البحث والاستقصاء، فكانت مسائل جذرية علمية معقدة، ودقائق وحي التنزيل، وغرائب الاحداث التاريخية، وعجائب المخلوقات، كلها كانت أمور تدور حولها تلك الندوات...»[١٣].

إن ما أورده البدعوني، حول مواضيع تلك الحلقات لا يعد كثيرا، بل لا يكاد يخرج عما اورده أبو الفضل[١٤].

(٨) راجع على سبيل المثال: J. Talboys Wheeler, "India Under: The Muslim rule" Delhi, 1975, Vol: 1, PP: 97F.
(٩) البدعوني، «منتخب التواريخ»، ج/٢ ص/٢٠٣.
(١٠) ابو الفضل، «أكبر نامه» ج/٣ ص ص/١٥٨—١٦٠.
(١١) البدعوني، «منتخب التواريخ»، ج/٢ ص/٢٠٥.
(١٢) أبو الفضل، «أكبر نامه» ج/٣ ص.ص/١٥٨—١٦٠.
(١٣) نفس المصدر السابق، والجزء والصفحة.
(١٤) البدعوني، «منتخب التواريخ»، ج/٢، في صفحات متفرقة من هذا الجزء، وخاصة من ص/٢٠٣ وبعدها.

أما علاقة السلطان أكبر بتلك الحلقات فيذكر البدعوني بأن هذا السلطان «...، كان يقضي الساعات الطويلة من وقته في التفكر والتحدث حول كلام الله، وحديث رسوله، ﷺ. كما كان يشارك في كل المناقشات التي تتناولها تلك الندوات، من أسئلة في التصوف، وما يتعلق بالمسائل العلمية، ومساءلات في الفلسفة والقانون، كل هذه الأمور كانت تسيطر على الجو العلمي لذلك اليوم»[١٥]. ولقد أورد هذا العلامة مواضيع شتى، ومسائل متعددة كانت تناقش في ذلك الديوان، في ثنايا كتابه القيم[١٦].

وفي نهاية كل ندوة حول موضوع من المواضيع، يقوم السلطان بتقديم الهبات والاعطيات، كل على حسب مرتبته العلمية، ومكانته الاجتماعية، والى أولئك العلماء الذين كانوا يهبون السلطان أكبر ومجتمعه ما حوته عصارة أفكارهم من العلوم والفنون والفلسفة وغيرها، إضافة الى ذلك، فقد كان السلطان يبذل أموالا كبيرة لشراء وتأمين ما يستهلك من البخور، وقد كانت كميات كبيرة جدا[١٧].

يبدو لنا أن السلطان أكبر، كان يظل في ذلك المكان، بعد إنصراف القوم منه؛ ويقضي البقية الباقية من ذلك الليل في التفكير، والابتهال والتعبد، وهو، كما يقول لنا البدعوني، يناجي ربه قائلا: «يا الله» و «يا هادي»، وهو في عزلة تامة عن الناس[١٨].

لذلك، وكما يذكر العديد من المصنفين، حيث لم يتم لنا نقاش هذه المسألة، فقد كان من نتائج تلك المناقشات أن اعتبر الهندوس، والبوذيون، والمسيحيون وغيرهم من اتباع ديانة كل فئة، بأن هذا السلطان قد أصبح من اتباعها ومناصريها. أما المسلمون فقد أخرجه الكثيرون، وعلى رأس القائمة الشيخ البدعوني، أحد رجال السلطان نفسه، من الدين الاسلامي، واعتبروه كافرا، مرتدا[١٩].

إن كان لنا كلمة أخيرة حول «الديوان الخاص» فهي: أنه تحفة رائعة لا يوجد مثيل لها في أي مكان من العالم، حسب معرفتي[٢٠] □

(١٥) نفس المصدر السابق، ج/٢ ص/١٦٠.
(١٦) المصدر السابق، ج/٢ ص/٢٠٤ — وبعدها، ثم ص.ص/٢٦٢، ٢٦٤—٢٦٥.
(١٧) البدعوني، ج/٢ ص/٢٠٥.
(١٨) نفس المصدر السابق، ص/٢٠٣.
(١٩) راجع التفاصيل في هذا الخصوص، البدعوني، ج/٢ ص.ص/٢١٤—٢١٥، ٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٥ —٢٦٩.
(٢٠) لمعلومات عنه، انظر: R.J. Mehta, "Masterpieces of Indo-Islamic Architecture" Bombay, 1976, PP: 29—30.

كلهم يأكلون الخبز

بقلم : د. عبدالرحمن مصيقر / البحرين

لقد كان الخبز ولا يزال القاعدة الأساسيّة في غذاء الشعوب وذلك لأنه يتمتع بعدة مزايا فهو مصدر عالٍ للطاقة الحراريّة اللازمة للحركة والعمل وللعمليات الحيويّة داخل الجسم ، وهو رخيص الثمن بحيث يمكن الحصول عليه وبكميات مناسبة لسد جوع الفقراء وبالإضافة إلى ذلك ، فهو يوفر قدراً مهماً من الاحتياجات الغذائية من البروتين الضروري لبناء الجسم .

ولنا أن نتساءل هنا كيف وصل الخبز الى هذه المكانة والأهميّة كغذاء رئيسي للكثير من الشعوب النّامية والمتقدمة على حد سواء ؟ وللإجابة على ذلك يجب أن نتحدث أولاً عن تاريخ تطور انتاج الحبوب وتصنيعها واستهلاكها ، وبخاصة القمح الذي يصنع منه (في الوقت الحاضر) أغلب أنواع الخبز .



كيف عرف الانسان الخبز ومتى؟

ربما كان الخبز أقدم طعام صنعه الانسان، وربما كان الوحيد الذي أسهمت اكثر الشعوب في اتخاذه طعاما اساسيا لها[١]. وتبين أغلب الشواهد الاثرية ان الهلال الخصيب في غرب آسيا هو الموطن الأصلي لزراعة القمح وبعض المحاصيل الأخرى، كالشعير، حيث بدأت زراعتهما منذ ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولقد قيل قديما ان بذور القمح هي بذور الحضارة، وأن الحضارة الموجودة في تلك الفترة، في منطقة الهلال الخصيب، كان اساسها الاعتماد على زراعة القمح بشكل رئيسي، والشعير والمحاصيل الأخرى بشكل ثانوي[٢].

لقد خضعت صناعة الخبز الى تجارب عديدة، وتطورات كثيرة، حتى وصلت الى ما وصلت اليه الآن. فتاريخ صناعة طحن الغلال، وخبز دقيقها، يرجع الى العهد القديم. فأول ما لجأ اليه الانسان لطحن الحبوب، هو استعمال اسنانه. وقد كانت النتيجة الحصول على خليط مر وغير شهي مع وجود مواد غير مرغوبة. وكانت تلك المواد هي القشور التي تعجز القناة الهضمية عن تمثيلها، ومن هنا بدأ الانسان في التفكير في بديل آخر غير أسنانه لطحن الحبوب. وقد كانت الحجارة هي الوسيلة الثانية التي استخدمها لفصل الدقيق عن أغلفة الحبوب وذلك لشيوع استعمال الحجارة في ذلك الوقت[٣].

وتدل الاكتشافات الاثرية ان الانسان قام بطحن الحبوب في حجر مصنوع على شكل وعاء بداخله الحبوب وتدق بقطعة حجر مستديرة. وقد أدى هذا الى ظهور الهاون الذي ما زال يستعمل باحدى صوره حتى عصرنا الحالي. وبالرغم من ذلك لم يظهر الطعم الجيد للحبوب وذلك لصعوبة فصل القشرة عنها، لذا فكّر الانسان في صنع اداة الطحن من حجرين مستديرين متماثلين ادى احتكاكهما الى انفصال مسحوق من الحجر اختلط بالحبوب فأفسد طعمها. ومن ثم اهتدى الانسان الى إبعاد الحجرين عن بعضهما قليلا ومن هنا نشأ الرحى، والتي كانت ولا زالت تستعمل في الكثير من المناطق في الدول العربية خاصة الريفية منها.

ان عملية طحن الحبوب باليد كانت عملية شاقة ومتعبة، لذا كان أغلب القائمين على ذلك هم العمال من الطبقات الدنيا والعبيد. ومع زيادة استهلاك القمح وتصنيعه، تطورت عمليات الطحن، بحيث أصبحت اكبر حجما، وتدار بواسطة الحيوانات أو مجموعة من الأفراد. ولا زالت هذه الطريقة البدائية تستعمل في بعض الدول النامية. ثم تلى ذلك اكتشاف الطاحونة المائية بواسطة الرومان بحوالي مئة سنة قبل الميلاد.

وعند نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ظهرت في القارة الاوربية طاحونة هي طاحونة الهواء، وفي القرن التاسع عشر للميلاد تعرضت صناعة الطحن الى تغيرات جوهرية حيث ظهرت الطاحونة التجارية التي تدار بقوة البخار.

ويعتبر الخبز هو الاختراع الاكبر الذي واكب اكتشاف وتطور وسائل طحن ونخل الحبوب، اذ حاول الانسان منذ القدم خلط مسحوق الحبوب بالماء قبل تناوله، وتسخين هذا الخليط على حجر ساخن للحصول على غذاء شهي، ومن ثم استخدم الانسان الفرن المصنوع من الطين والحجر، لتسخين الخبز، واستمر تناول القمح والشعير على هذه الحالة لقرون طويلة.

ويعتبر اكتشاف التخمر هو الخطوة الثانية الهامة في تطور صناعة الخبز. فلقد كان الخبز الذي يؤكل هو ا لخبز المسطح «Flat bread»، أو الخبز غير المخمر والذي يختلف طعمه ونكهته عن الخبز المخمر. وهناك عدة نظريات حول كيفية اكتشاف الانسان لعملية التخمر ويعتقد ان ذلك تم بمحض الصدفة، حيث انه نسي ان يخبز العجينة مما ادى الى تخمرها ونتج عن ذلك ظهور فقاعات هوائية عند تسخينها وتغير في شكل وطعم الخبز[٤]، ومن ثم بدأ الانسان باضافة كمية صغيرة من عجينة بائتة (مخمرة) الى كمية كبيرة من عجينة جديدة وقد تبين ان ذلك يؤدي الى تخمر كل العجينة. واستمرت هذه الطريقة تستعمل لفترات طويلة بواسطة الخبازين حتى بداية القرن التاسع عشر للميلاد عندما تم اكتشاف الخميرة الصناعية.

وتدل أغلب الشواهد الاثرية ان المصريين القدماء هم أول من استعمل الخميرة في صناعة الخبز. وقد كان يطلق عليهم «آباء الخبز» و «آكلي الخبز». ويرجع اليهم الفضل الأكبر في تطور صناعة الخبز فقد اشتهروا بتحضير اكثر من ٥٠ نوعا من الخبز الكعك.

مصادر الخبز

هناك العديد من الحبوب الغذائية التي تدخل في صناعة الخبز سواء بمفردها أو بخلطها مع القمح. ومثال ذلك الذرة والشعير والشليم والارز. والقمح هو المحصول الوحيد الذي يحتوي على كميات كافية من بروتين (الجلوتين) الذي عندما يتشرب بالماء تتكون منه عجينة مرنة، تساعد على حدوث

---

(١) احمد القدامه ــ قاموس الغذاء والتداوي بالنبات ــ دار النفائس ــ بيروت (١٩٨٢) الصفحات ١٨٩ــ١٩٥.

(٢) Aykroyd W. R. and Doughty J. Wheat in human nutrition. FAO, Rome (1970) pp 4-16, 53—62.

(٣) محمد ممتاز الجندي ــ الصناعات الغذائية (تكنولوجيا الحبوب) دار المعارف بمصر. القاهرة (١٩٦٩) ــ الصفحات ٣٢ ــ ٦٤، ١١٣ــ١٣٦.

(٤) Lowenberg E.M. et al. Food and Man. John Wiley and sons. N.Y. (1974), pp 102—108.

الانتفاخ نتيجة تكوين الغازات أو بالتالي إعطاء شكل مميز للخبز. أما الذرة فتستعمل في بعض البلدان في امريكا الجنوبية وفي الريف المصري. وهي اذا ما قورنت بالقمح وجدنا أنها تحتوي على نسبة أعلى من المواد الدهنية ونسبة أقل من الأملاح المعدنية والمواد البروتينية هذا علاوة على نقص كفاءة بروتيناتها. ونتيجة لغياب (الجلوتين) فإن عجينة الذرة تكون قليلة المرونة، لذا فإنه عندما يعمل خبز الذرة يضاف الى دقيقها بعضا من دقيق القمح ليساعد على مرونة العجينة. وفي مصر تضاف أحيانا الحلبة المطحونة «دقيق الحلبة» لجعل العجينة أكثر تماسكا. ويستهلك هذا النوع في قرى الوجه البحري بمصر(٥).

أما الشعير فهو يحتوي على نسبة أعلى من المواد البروتينية مقارنة بالذرة والارز ولكن ينقصه «الجلوتين» الذي يعطي المرونة للعجينة، وبالتالي فإن الخبز المصنوع من الشعير يكون جافا في العادة. وخلال القرون الماضية كان الشعير هو غذاء الفقراء، ولكن الناس بدأت بالتخلي عنه واتجهت الى تناول الخبز المصنوع من القمح تميز نكهته وطعمه وشكله. وفي بعض المناطق يخلط دقيق الشعير مع دقيق القمح لتحسين خواص الخبز المصنوع.

كما يستعمل الشليم والارز لعمل الخبز في بعض المناطق الريفية التي لا تكثر فيها زراعة القمح وكثيرا ما يضاف دقيق القمح الى دقيقهما للحصول على خبز جيد.

إن عملية طحن القمح يمكن التحكم فيها لتعطي كمية أكثر أو أقل من الدقيق وذلك حسب الغرض من استعماله. فمثلا القمح الكامل تكون جميع أجزاء حبة القمح موجودة فيه ويكون لونه عادة اسمر نتيجة وجود النخالة فيه، وكلما انخفضت عملية استخلاص النخالة من الدقيق مال لونه الى الأبيض. والدقيق الأبيض المستعمل حاليا تبلغ نسبة استخلاص النخالة فيه حوالي ٧٠٪. وبالطبع فإن هذا يؤثر على نسبة الفيتامينات والمعادن الموجودة أصلا في حبة القمح فهي كذلك تنخفض بانخفاض نسبة الاستخلاص. لذلك فإن الدقيق الأبيض الذي يصنع منه أغلب أنواع الخبز حاليا يحتوي على كميات أقل من المواد المعدنية والبروتينية والفيتامينات بخاصة مجموعة فيتامينات «ب»(٦).

كيف يصنع الخبز ؟

يعرف الخبز بأنه المادة الغذائية الناتجة من ترطيب وعجن وخبز دقيق القمح (أو أي محصول آخر) وغالبا يتم ذلك باضافة الخميرة أو أي مادة أخرى تساعد على التخمر.

(٥) علوية علوي ــ التغذية والارشاد الغذائي ــ مركز تنمية المجتمع بسرس الليان ــ مصر (١٩٦٨) ــ الصفحات ٤٤ــ٤٧.

(٦) Cameron A. The science of food and coking. Edward Arnold U.K. (1980). pp 55—63, 207—210.

ولكي يتم صنع الخبز يضاف الماء الى الدقيق لتتكون عجينة ويتشرب بروتين القمح بالماء المضاف مكونين مركبا متماسكا غروي الصفات يطلق عليه اسم «جلوتين» وهذا الجلوتين له أهمية كبيرة في صناعة الخبز حيث يساعد على إعطاء المرونة والليونة للعجينة. وقديما كان الناس يخبزون هذه العجينة لتعطي منتوجا صلبا وغير جذاب ويدعى الخبز غير المخمر. أما في الوقت الحاضر تضاف الخميرة الى العجينة لكي يحدث تخمر وينتج غاز ثاني اكسيد الكربون. ويعزى تكوين غاز ثاني اكسيد الكربون في العجينة الى نشاط الخميرة المضافة. وهذا الغاز لا بد من تكوينه ليعطي الخبز والكعك قوامه المسامي الرقيق. وتتطلب الخميرة وجود الماء والغذاء ودرجة حرارة مناسبة لها. والخميرة تضاف للعجينة بكمية تكفي لانتاج القدر المناسب من الغاز أثناء فترة التخمر، إذ أن كمية الغاز الناتجة في بداية التخمر تزداد بزيادة كمية الخميرة المضافةوبزيادة طول فترة التخمر(٧).

وتحدث هذه العملية نتيجة لنشاط بعض الانزيمات «الخمائر» الموجودة في خلايا الخميرة التي تستعمل السكر الموجود في الدقيق كمصدر لنشاطها «الطاقة» وينتج عن ذلك تحليل السكر الى كحول وغاز ثاني اكسيد الكربون. ويكون هذا الغاز موجودا على شكل فقاعات صغيرة محتجزة في وسط العجينة. وعندما يصبح حجم العجينة مناسبا يتم تشكيلها حسب الطلب ثم توضع في الفرن، وحالما تتعرض للحرارة تتوسع الفقاعات الغازية فيها بشكل سريع نتيجة تمدد الغاز بالحرارة ويحدث انتفاخ في العجينة وتستمر عملية التخمر حتى تصل درجة الحرارة الى ٦٠م، وبعد ذلك تقتل الخميرة ويحدث تمدد تدريجي للعجينة ناتج من وجود مادة الجلوتين المرنة. وبما ان هذه المادة هي في الأصل بروتين فإن درجة الحرارة المرتفعة تؤدي الى تكتلها وبذا يفقد الخبز الخاصية المرنة ويثبت حجمه وشكله.

أنواع الخبز

هناك عدة أنواع من الخبز وغالبا تتوقف نوعية الخبز على نسبة استخلاص النخالة من الدقيق واستعمال الخميرة في تحضيره. وعموما يمكننا تقسيم الخبز الى نوعين رئيسيين:

١ ــ الخبز غير المخمر او الخبز المسطح: يرجع تاريخ صنع هذا الخبز قبل اكتشاف عملية التخمر. ويصنع بإضافة الماء الى الدقيق لتكوين العجينة ثم يضاف اليها الملح وترق أو تشكل حسب الطلب ثم تسخن. وقد كانت الصخور الساخنة تستعمل في تحضير هذا الخبز أما الآن فتستعمل

(٧) محمد ممتاز الجندي ــ الصناعات الغذائية (تكنولوجيا الخبز والشوكولاته والسكر) ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة (١٩٧٠) ــ الصفحات ١٦ــ١١٦.

الأفران. ولا زال تناول هذا النوع من الخبز متداولا في افريقيا وفي دول الشرق الأوسط وبعض الدول الآسيوية بطريقة لم تتغير كثيرا عن مثيلتها منذ عدة قرون.

وفي الهند وباكستان وافغانستان يطلق على هذا الخبز بالجباتي — Chappati ويتم تسخين العجينة على مقلاة حديدية — Iron pan وتقلب على الجهتين. ومن المهم أن يكون لدقيق الجباتي قدرة على امتصاص كميات كبيرة من الماء حتى لا تصبح العجينة جافة عند تسخينها. وهناك نوع آخر من الخبز غير المخمر يطلق عليه الباراثاس — Parathas وهو يحضر بنفس طريقة تحضير الجباتي ولكن يضاف اليه الدهن أو الزيت ويسخن حتى يحمر وجهه ويصبح داكن اللون «اسمر» وهش. والجدير بالذكر أن هذين النوعين من الخبز يستهلكان بكثرة في منطقة الخليج العربي ويسميان بالجباتي. وقد ورد هذا النوع من الخبز الى دول المنطقة عن طريق المهاجرين الهنود والباكستانيين الذين أدخلوا معهم الكثير من العادات الغذائية والتي أصبحت بدورها جزءا من عادات وشعوب المنطقة.

٢ — الخبز المخمر: وهو الخبز الذي يستعمل في تحضيره الخميرة أو أية مادة تساعد على التخمر. ويدخل ضمن هذا النوع جميع أنواع الخبز الأخرى تقريبا، مثل الخبز الأسمر والأبيض والعربي والايراني والغربي.. الخ. وأكثر أنواع المواد المستعملة في التخمير هي الخميرة — Yeast أو البكتيريا الموجودة في الهواء والتي تدخل في العجينة أثناء تحضيرها وبالتالي يحدث تخمر طبيعي لو تركت العجينة لفترة من الزمن. وتستعمل بعض المخابز قطعا صغيرة من عجينة بائتة مخمرة تضاف الى العجينة الجديدة. وعلى الرغم من شيوع استعمال هذه الطريقة إلا أنها غير مضمونة النتائج حيث كثيرا ما يظهر طعم الخبز حامضا.

والخبز الأبيض هو أكثر الأنواع استهلاكا ويتكون من دقيق يحتوي على كمية قليلة من النخالة وعلى نسبة أقل من الفيتامينات والمعادن والألياف اذا ما قورن مع الخبز الأسمر. وتتوقف عملية تصنيع هذه الأنواع حسب نوع الدقيق ونسبة استخلاص النخالة.

أما الخبز الأسمر فهو عادة يحتوي على نسبة كبيرة من النخالة وبالتالي على كمية أعلى من الألياف والفيتامينات والمواد المعدنية. وهو غالبا ما يصنع من خليط من دقيق القمح الكامل مع الدقيق الأبيض وأحيانا يضاف اليه السكر المحروق لاكسابه اللون البني.

وهناك نوع آخر من الخبز يدعى خبز القمح الكامل، وهو المصنوع من دقيق القمح بدون نخل الدقيق. كما أن هناك بعض أنواع الخبز البلدي كما في مصر، يتم تحضيرها في المناطق الريفية وتستخدم العجينة البائتة في تخمير العجينة الجديدة وتسخن بوضعها على أفران حجرية ساخنة جدا بحيث أن الخبز يستوي خلال فترة قصيرة، مما يؤدي الى انتفاخ العجينة المسطحة بشكل مفاجيء وسريع وبالتالي تنشطر الى قسمين مكونة فراغا بينهما. وقد استغلت هذه الطريقة حتى في المخابز الحديثة وأصبح هذا النوع من الخبز كثير الاستعمال بعد أن استبعد الدقيق الاسمر الذي يستعمل في الخبز البلدي وأدخل مكانه الدقيق الأبيض. ومن مزايا هذا الخبز صلاحيته في عمل السندويتشات أو حشوه بالزعتر أو أي مادة غذائية أخرى.

القيمة الغذائية للخبز

تتوقف القيمة الغذائية للخبز على نوع الدقيق المستعمل ونسبة استخلاص النخالة وعلى كمية الماء الموجودة فيه والخميرة المضافة للعجينة تعتبر مصدرا جيدا لفيتامينات «ب» ولكن استعمالها بكميات ضئيلة يقلل الاستفادة من مكوناتها. وإن عملية تحميص الخبز كما هو الحال في الجباتي والخبز الرقاق «الخبز الافرنجي» تؤدي الى فقد كمية كبيرة من البروتين وبعض الفيتامينات وتؤدي الى فقد كبير في الماء مما يساعد على تركيز المواد النشوية، لذا فإن هذه الأنواع من الخبز تعطي كمية عالية من الطاقة الحرارية مقارنة بالأنواع الأخرى.

يعتقد الكثير من الناس أن الخبز مصدر جيد للمواد النشوية وأنه من الأغذية المولدة للطاقة فقط وقد يكون ذلك صحيحا، لأن القمح يحتوي على كمية كبيرة من المواد النشوية ولكن يجب أن لا نغفل إحتواء القمح على نسبة كبيرة من البروتين وبعض المواد المعدنية والفيتامينات. ولكن نوعية البروتين الموجودة فيه تعتبر أقل كفاءة من البروتينات الحيوانية(٨).

وبالنسبة للفيتامينات فإن الخبز فقير في محتواه من فيتامينات «أ» و «ج» و «د» والخبز المصنوع من دقيق القمح الكامل يحتوي على مقادير جيدة من مجموعة فيتامينات «ب» ويعتبر فيتامين «ب» أكثر أنواع الفيتامينات فقدا أثناء عملية الطحن وتحميص الخبز ويعتبر دقيق القمح الكامل من أغنى المصادر الغذائية لهذا الفيتامين. وعموما تعتمد عملية الفقد على سمك الخبز ودرجة الحرارة المستعملة. فمثلا مقدار الفقد يكون عاليا جدا في حالة خبز الرقاق.

وقد تبين من الدراسات أن عملية إضافة بيكربونات الصودا أو بعض المواد الكيماوية للعجينة لها تأثير مدمر على فيتامينات «ب ١» وقد وجد أن الخبز المصنوع بإضافة هذه المواد يكون خاليا من هذا الفيتامين ويتميز هذا النوع من

---

(٨) Passomore R. The place of bread and flour in the modern diet. In proceeding of the eleventh annual nutrition conference. London (1973), pp 2—6.

الخبز برائحة وطعم مميزين. كما أوضحت الدراسات أن الاعتماد على الخبز الأبيض المصنوع من الدقيق الأبيض الناعم كغذاء رئيسي قد يؤدي الى حدوث مرض البربري المسبب للهزال ولالتهاب الأعصاب والشكل الآخر للمرض يؤدي الى تراكم كمية زائدة من الماء في الجسم وقد يؤدي الى هبوط القلب(٩).

ويحتوي دقيق القمح على مقادير مناسبة من الكالسيوم والمغنسيوم والحديد والزنك ومواد معدنية أخرى ويوجد الجزء الأكبر من هذه المواد في القشرة التي يذهب معظمها عند الطحن والنخل. كما أن هناك بعض المواد الكيمائية التي تتفاعل مع الكالسيوم والحديد مكونة مادة غير قابلة للامتصاص وبالتالي لا يستطيع الجسم الاستفادة القصوى من هذه المواد المعدنية. وكإجراء وقائي قامت الكثير من شركات الطحن والدقيق بإضافة مادة الحديد وفيتامينات «ب» والكالسيوم الى الدقيق وذلك بغرض تحسين القيمة الغذائية للخبز.

---

(٩) منظمة الصحة العالمية ــ دليل الاحتياجات الغذائية ــ المكتب الاقليمي لشرق البحر الأبيض المتوسط ــ الاسكندرية الصفحات ٣٩ــ٤١.

ومن الناحية الغذائية فإن نوع الغذاء الذي يؤكل مع الخبز هو الذي يحدد القيمة الغذائية للوجبة وذلك لأن الخبز لا يؤكل لوحده، وان تناول الخبز مع البيض أو الجبن أو اللبن الزبادي يساعد على رفع القيمة الغذائية للوجبة.

الثورة من اجل الخبز

هناك العديد من الشواهد الاثرية التي تؤكد مدى احترام وتقديس الناس للخبز في العصور القديمة. فلقد كان للمصريين إله للخبز يدعى ايزوريس والذي يعتقد أنه نقل زراعة القمح من لبنان الى مصر وكان للاغريق إله للخبز يدعى ديمتري كما كان للرومان إله يدعى سيريس ــ Ceres وهو أصل الكلمة الانجليزية Cereal والتي تعني الحبوب. وفي أيام مصر القديمة كان الخبز يستعمل كعملة للمداولة حيث كان معدل الأجر اليومي للعامل ٣ لفائف من الخبز وغيرها. وفي القرون الوسطى كان الخبز يعتبر غذاء الملوك في فرنسا،فبينما كان الشعب الفرنسي يجوع بسبب نقص الخبز والأغذية الأخرى، كانت موائد الملوك تعج بأنواع الخبز. وفي تلك الأوقات العصيبة أصبح للخبز تقديرا اجتماعيا.

وللخبز أهمية غذائية لدى معظم الدول النامية حيث يستمد الفرد منه ما يقرب من ٤٠ الى ٧٠ بالمائة من الطاقة الحرارية المتناولة يوميا ونظرا لكونه الغذاء الرئيسي للمواطنين فقد استحوذت مشكلة توفير رغيف الخبز على تفكير المسؤولين والمخططين في هذه الدول لما له من أثر على الأمن السياسي والاجتماعي فلا بد من إطعام الأفواه الجائعة بالخبز وهذا يتطلب دعما ماليا كبيرا قد يشكل عبئا على ميزانيات هذه الدول.



ومع التطورات العالمية سيكون سلاح الخبز من افتك الأسلحة في أي مواجهة عالمية. فإن سوء انتاج القمح والحبوب الأخرى في معظم الدول النامية جعلها تعتمد على استيراده لغرض توفير الخبز بأي شكل من الأشكال للفقراء وبأسعار عادلة ونتيجة للزيادة المطردة في الطلب على الخبز والارتفاع الكبير في أسعار الحبوب فإن هذه الدول قد تجد نفسها مضطرة الى زيادة دعمها للخبز سنويا، الأمر الذي يؤدي الى إرهاق ميزانيتها واعتمادها بشكل أكبر على الواردات التجارية التي تتحكم فيها الدول المصدرة للحبوب. ولكن هذه الواردات تحددها الموارد الشحيحة من العملات الأجنبية المتوفرة لهذه الحكومات، وبذا تجد الدول النامية نفسها غير قادرة على توفير احتياجات المواطنين من الخبز بأسعار ثابتة. ولهذه الظاهرة الاقتصادية آثار خطيرة لا يمكن التنبؤ بمداها ولكنها كلها تتضمن الأسى والغضب من جانب المواطنين وقد يؤدي أحيانا الى الشغب والثورة ضد الحكومة[10]. ويقول شال جوي[11] ان التاريخ أثبت أن الشعب الجائع يحارب بدلا من أن يموت جوعا. كذلك دل التاريخ الحديث أن جوع الشعب يؤدي الى استسلامه أو تحوله الى تبني أنظمة وأفكار أخرى غير مرغوبة. وأنه لا حرية سياسية بدون حرية رغيف الخبز وحرية الطعام ولا أمل في السلام والأمن طالما يتضور شعب من الجوع.

ترشيد استهلاك الخبز

رغم أن توفير رغيف الخبز للمواطنين هو الشغل الشاغل للكثير من الحكومات إلا أنه للأسف هناك سوء استهلاك للخبز. ففي بعض الدول العربية ونتيجة لرخص ثمن الخبز وجد أنه يستخدم كعلف للماشية. وفي بلدان أخرى نجد أن المستهلك يشتري كميات من الخبز أكثر مما تحتاج اليه أسرته. وقد سرى هذا الاسراف الى منطقة الخليج العربي فنجد أن مصير الكميات الفائضة من الخبز والأطعمة الأخرى ليست بطون الناس بل القمامة مع أن دول المنطقة تدفع فروقات كبيرة في أسعار الدقيق لتوفيره بأسعار مناسبة. ويرجع هذا الاسراف وسوء استخدام الخبز بصفة عامة الى الانخفاض في الوعي الصحي والغذائي للكثير من الناس. وبناء على ذلك فإنه يجب على هذه الدول أن تبدأ حملة ترشيدية لاستهلاك الطعام وتنمية إحساس المواطن بالمسؤولية والمشاركة الفعلية في تحقيق الأمن الغذائي.

إن الافراط في تناول الخبز غالبا ما يساعد على حدوث

(١٠) ويلارد كوكرين ــ مشكلة الغذاء العالمية ومشكلات التنمية ــ ترجمة د. محمد الشحات ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة (١٩٧٤) ــ الصفحات ٩٥ــ٩٨.

(١١) شارل جوي ــ السباق بين الانسان والطعام ــ ترجمة د. محمد الشحات ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة (١٩٦٢).

السمنة ويخطيء الكثير من الناس اذ يعتقدون أن رغيف الخبز يحتوي على كمية أقل من السعرات الحرارية مقارنة بالارز. فكل مائة جرام من الخبز تعطي ما يقارب من ٢٥٠ الى ٣٠٠ سعر حراري مقابل ١٧٥ سعراً حرارياً لكل مائة جرام من الارز المطبوخ. لذا فاننا ننصح الأشخاص البدينين والذين يتبعون الرجيم ان يأخذوا بعين الاعتبار هذه الحقيقة في غذائهم.

فالخبز الجاف أسهل هضما من الخبز الطازج وذلك لخلو الخبز الجاف من الماء مما يجعله يتفتت بسهولة عند مضغه ويمتص كمية كبيرة من اللعاب وبذا يسهل هضمه ويجعل العصارات المعدية تصل اليه بسهولة اكثر[12].

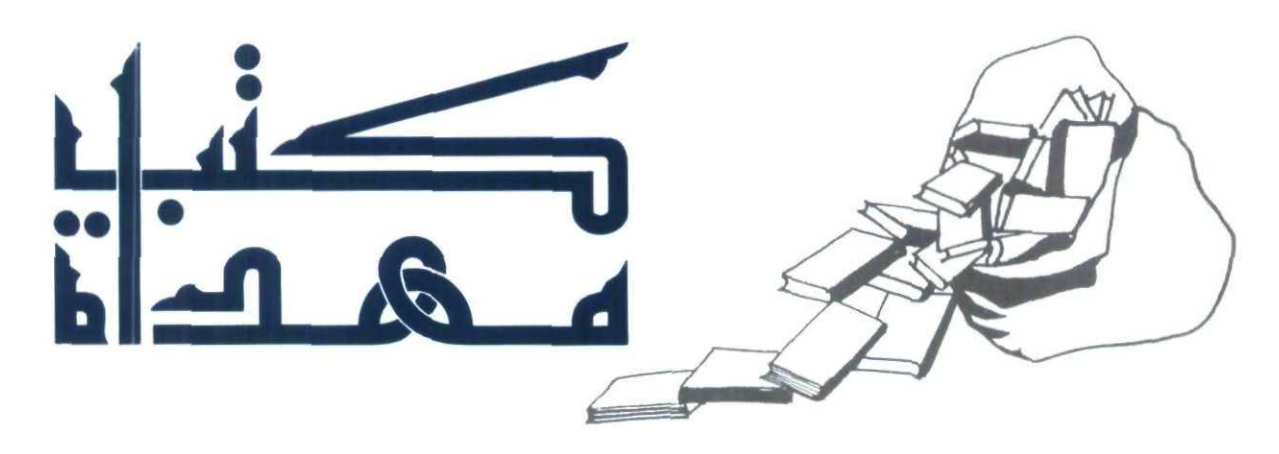
ويجب تبريد الخبز قبل تغليفه منعا لتراكم الرطوبة بين الخبز والغلاف فتصبح هذه المناطق بيئة صالحة لنمو العفن. وتتوقف فترة صلاحية الخبز على طريقة حفظه وكمية الماء الموجودة فيه. فالخبز الجاف الرقاق والمحمص يبقيان صالحان لفترة أطول من بقية أنواع الخبز. ولذا فإنه يجب تناول الخبز في الصيف خلال ٣ أيام من شرائه أما في الشتاء فقد تزداد الفترة الى ٥ أيام. ويمكن حفظ الخبز لفترات طويلة بوضعه في الثلاجة «في المجمد» وهذه الطريقة تبقي الخبز صالحا للاستهلاك لمدة أكثر من ٣٠ يوما[13].

ويعتبر العفن أكثر المسببات لتلف الخبز وعدم صلاحيته للاستهلاك. ويصاب الخبز بالعفن نتيجة تلوثه بعد إبقائه لفترة طويلة ليبرد أو أن تكون الأجهزة المستعملة في تقطيعه وتغليفه ملوثة. وأحيانا ينتقل العفن عن طريق الاشخاص القائمين بإعداد الخبز. كما أن تخزين الخبز في أماكن رطبة وحارة تساعد على نمو العفن. وغالبا ما ينمو بسرعة عندما يقطع الخبز الى شرائح كما هو الحال في الخبز الافرنجي، لأن ذلك يؤدى الى دخول كميات أكبر من الهواء بين شرائح الخبز وهذا بدوره يسهل نمو وتكاثر العفن. ولتجنب الاصابة بالعفن يجب تنظيف الأجهزة المستخدمة في تحضير الخبز جيدا وأن لا يترك ليبرد (بعد اخراجه من الفرن) لفترة طويلة ثم يغلف بأغلفة نظيفة. وينصح بعدم تخزين الخبز في الأماكن الرطبة قدر الامكان كما أن عملية وضع الخبز في الثلاجة تساعد على بقائه صالحا للاستهلاك لفترة طويلة[14] □

(١٢) علي محمود عويضه ــ الموسوعة الغذائية ــ عالم الكتب ــ مصر (بدون تاريخ) ــ الصفحات ٢٥١ــ٢٥٤.

(١٣) Rechcigl Jr. M. Handbook of nutritive value of processed food, volume I. CRC Press, Florida, (1982), p 249.

(١٤) Fraizer W.C. and Westhoff D.C. Food microbiology — Tata McCrawHill Publishing Co. Ltd., New Delhi (1981), pp 179—182.



* «الكيمياء والطاقة البديلة» للدكتور محمد نبهان سويلم، ويتناول الكتاب أزمة الطاقة والحلول الكيميائية المقترحة، ويقدم عرضا مبسطا للكيمياء كعلم رئيسي، ويستعرض الجهود الكيميائية في حل أزمة الطاقة بدءا بالفحم والايدروجين وتوليد الكهرباء كيميائيا وبحوث الكتلة الحيوية والطاقة النووية، وذلك وفق أسلوب مبسط بشكل يلائم القارىء غير المتخصص. وقد تم تدعيم الكتاب بصور وأشكال توضيحية. ويقع هذا المؤلف العلمي في ١٩٩ صفحة من القطع الصغير، وهو من اصدارات مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

* «السمكة.. والبحر،، قضايا وقراءات في الأدب والفكر» من تأليف الأديب والصحفي الأستاذ علوي طه الصافي، رئيس تحرير مجلة الفيصل. يضم الكتاب مجموعة من الموضوعات المختلفة والمتنوعة، تبحث في قضايا الفكر والأدب عموما، ويضم القسم الأول منه الموضوعات التي تناقش القضايا الأدبية والفكرية. أما القسم الثاني فيضم بعض قراءات المؤلف في دواوين الشعر والقصة. ويقع الكتاب في ٢٤٧ صفحة من القطع المتوسط. وهو من إصدارات دار الصافي للثقافة والنشر بالرياض.

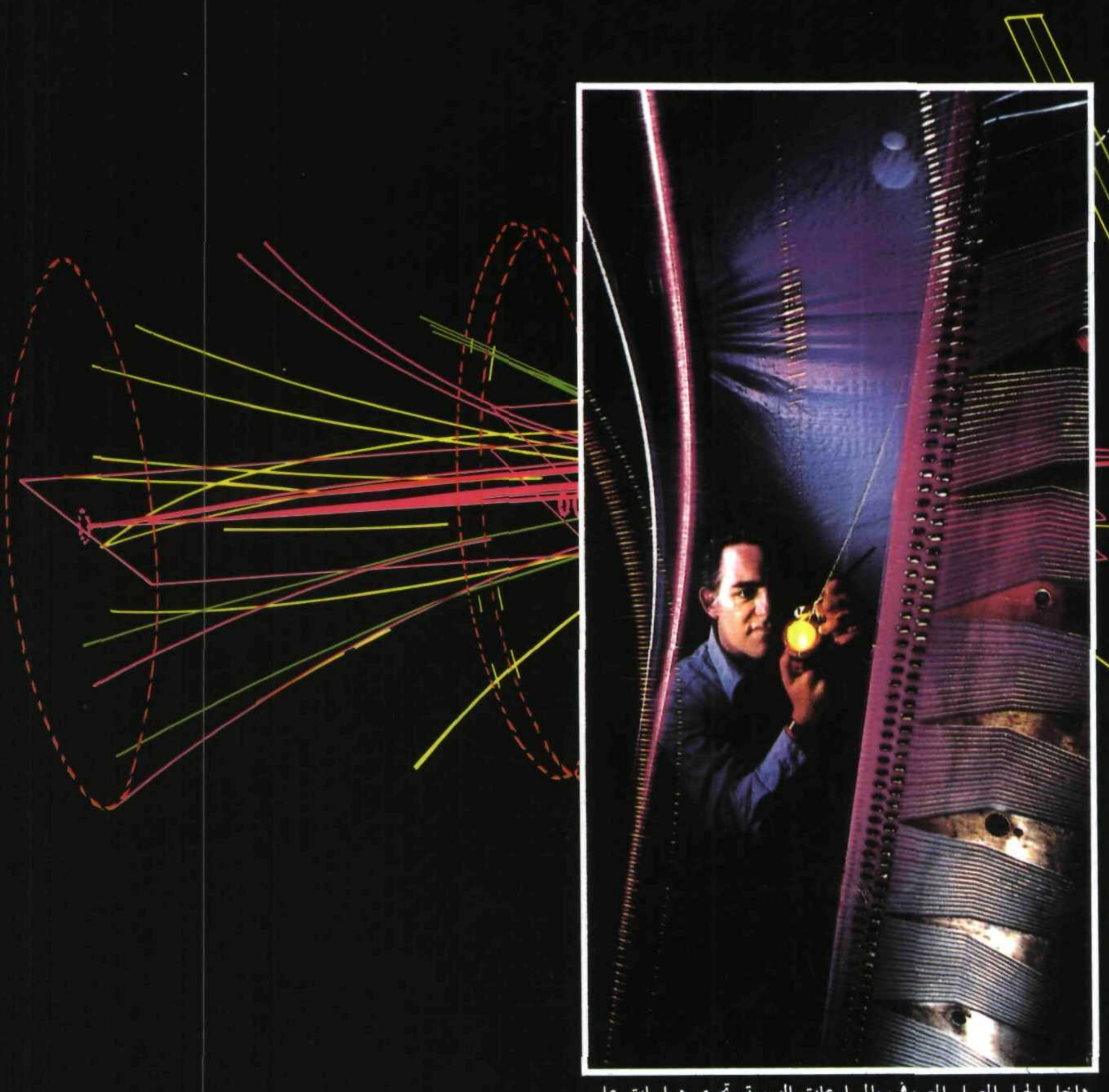
* «السلطان عبدالحميد الثاني.. وأثره في نشر الدعوة الاسلامية» من إعداد الاستاذ محمد قربان نياز ملا، ويتألف الكتاب من ثلاثة فصول، يتحدث في الفصل الأول، عن عصر السلطان وحياته، وأحوال العالم الاسلامي في أواخر العهد العثماني. أما الفصل الثاني فيتحدث فيه عن أثر السلطان عبدالحميد في نشر الدعوة داخليا وخارجيا. وفي الفصل الثالث يناقش المؤلف الشبهات التي أثيرت حول هذا السلطان العثماني، مشيرا الى مصادرها ودوافعها. ويقع الكتاب في ٢٣٨ صفحة، وهو من نشر وتوزيع مكتبة المنارة بمكة المكرمة.

* «منهج المسعودي في كتابة التاريخ» من تأليف الدكتور سليمان بن عبدالله السويكت، الاستاذ المساعد في التاريخ الاسلامي بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، وكان هذا الكتاب في الاصل اطروحة نال على أثرها المؤلف درجة الدكتوراه. ويعتبر أبو الحسن المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ أحد أهم المؤرخين المسلمين وكان صاحب رحلات وجولات شرقا وغربا. وقد خلف تراثا ضخما تمثل في المؤلفات التاريخية الكثيرة التي تركها. ويقع الكتاب في ٤٨٤ صفحة.

* بيادر: وصل مكتبة القافلة الجزء الثاني من «بيادر» وهو ملف ثقافي ابداعي يصدر عن نادي أبها الأدبي، وقد حوى هذا الملف على عدد من الدراسات منها دراسة عن «التيار الاسلامي في شعر عبدالرحمن العشماوي» ودراسة أخرى عن علم من اعلام الفكر الاسلامي «عبدالله بن المبارك» وكذلك دراسات أخرى عن «الحداثة والتراث» و «الحداثة من منظور محايد». كما تضمن العدد ايضا عددا كبيرا من القصائد وبعض القصص بالاضافة الى مسرحيتين □



راجع مقال: كلهم يأكلون الخبز



داخل الجبل المعملي المعروف بالمسارعات النووية، تجري دراسات على أشعة الليزر والموصلية الفائقة، وهذا احد العلماء العرب الذي يواصل دراسته لنيل درجة الدكتوراه تحت إشراف العالم الباكستاني محمد عبدالسلام. «راجع مقال: تحت الأرض يبحثون عن وحدة الكون».